

فوزي عوض

هذه السلسلة

عندما تتحوّل حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..

وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..

يتوق قلب كل منا إلى الحبّ .. الحب الذى يروى هذه المشاعر .

فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ...

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب .. وفى لحظات الكراهية .. وفى لحظات الجفاف .. فيشع عبيرها الفواح فى ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ؛ فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا .

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملوه جمال الشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

الفصل الأول

.... إذن فهذه هى محطة الوصول !!

محطة النهاية !!

المحطة الأخيرة فى رحلة التجديف فى نار جهنم !!

نعم جهنم !!

جهنمه التى سقط فيها حيًا منذ ما يزيد على عشر سنوات ، فأطبقت عليه ، ولم تسمح له بمغادرتها حتى لحظته هذه ، ومع ذلك احتملها ، وصبر عليها ، على أمل أن ينال عفوها يومًا ما ..

عشر سنوات وهو يجدّف فى جحيمها بكل ما أوتى من قوة ومن بأس ، وبصبْر أيوب ، وبعزم يراه هو مستحيلاً على بشر سواه !!

عزم من تشويه نار جهنم ولديه الأمل فى الجنة !!

نعم الجنة !!

جنة الدنيا .. جنة الشهرة والثراء والعز ..

جنة النجومية التى تهب المحظوظ بها ميلادًا جديدًا بهيًا ناصعًا ، يجُبُ ما قبله ولو كان سيلاً من عفن ..

وهو تحديدًا من دون البشر أجمعين كان فى أشد الحاجة إلى هذا الميلاد .. إلى هذه الجنة .. وحتى أيام قليلة مضت كان كله أمل فى أنه سينالها يومًا ما ، وسيودع جهنمه المضرمة هذه إلى الأبد .

يومًا ما قرأ فى واحد من الشروح الدينية أنه بعد أن ينتهى يوم القيامة ، وينتهى تحديد المصائر ، سيكون فى جهنم قوم عصاة تأتيهم رحمة المولى عز وجل ، فيُنقلون إلى الجنة ، حتى إن أهل الجنة سيصفونهم وهم يستقبلونهم بالجهنميين ، وسيعاتبهم المولى عز وجل فى ذلك ، فإذا كان هذا سيحدث فى الآخرة حيث الأحكام الأبدية ، أو لا يكون الأمل أكبر فى حدوثه فى الدنيا ، حيث دوام الحال من المحال ؟

ومن اليوم الذى قرأ فيه هذه البشرى أعد نفسه من هؤلاء الجهنميين الذين سينتقلون يومًا ما برحمة ربهم إلى الجنة ..

ومن ذلك اليوم البعيد راح يجدِّف فى جهنمه بأمل عجيب رغم ضراوتها .. وهل هناك أشد ضراوة من جهنم أضرمتها

مأساة لا تُحتمل ؟ وفقر شانق ؟ ويتم كامل مكتمل من الأهل أجمعين ؟ ووحدة أشد فتكًا من وحدة الأموات فى القبور ؟ وفشل مارد متجبِّر متحجِّر القلب ، يقف منتصبًا متربصًا عند نهاية كل مسعى ؟!

والنتيجة ؟

ها هو وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره وحيدًا داخل حجرته التى لا يمكن تشبيهها إلا بزنزانة انفرادية فرَّت من أحد السجون لتستقر فوق سطح هذا المنزل الشعبى العجوز المطل على محطة مترو أنفاق « عين شمس » ..

وبينما كانت عقارب الساعة تواصل زحفها السلحفائى نحو منتصف الليل بكآبة ليالى « ديسمبر » الشتوية التى تدمغ الأرواح والقلوب بالوحشة والاكتئاب ، كانت عينا (يوسف) معلقتين باللمبة الكهربائية الصغيرة الصفراوية الضوء المدلاة من منتصف سقف الحجرة بنظرة الاستسلام للمصير المأساوى الذى لم يعد يرى له بديلاً .. كان يستند برأسه وظهره إلى الجدار ، عاقدًا ذراعيه القويتين المشعرتين فوق ركبتيه ، مسددًا نظراته الذاهلة إلى اللمبة وهو يجلس القرفصاء فوق الكنبة الاسطمبولى

المتهالكة ، الذى سوّد البق زواياها الخشبية بمخلفاته ، وتعطّنت حاشيتها الإسفنجية القديمة الهشة ، وكسوتها القماشية الكالحة المهترئة ، وبطانيتها الرمادية المنحولة بروائح العرق وبودرة البراغيث والرطوبة والتراب .. ومن جلسته هذه راح يزحف بنظراته المستسلمة الفائحة برائحة الموت على الجدران الجيرية الكابية ، المرشّقة بالمسامير المحمّلة ببنطلونيه الجينز الباهتين ، وتى شيرتاته الثلاثة ، وسترته الجلدية السوداء المقشّرة وجميعهن ومعهن الترينج الأزرق الذى يرتديه ومن تحته غياره الداخلى الوحيد مجمّعين من بالات وكالة البلح ، أما بقية المسامير فقد عُلق بها كيسان لبواقى الطعام والسكر كى يكونوا بمنأى عن النمل الذى لا يخجل ولا يتردد فى السطو عليها ، وكأنها بلا صاحب .. ومن فوق الجدران نزلت نظرات (يوسف) المتيبّسة بانهياره واستسلامه إلى الترابيزة الخشبية العجوز المتهالكة العارية القابعة فى زاوية الحجرة مستسلمة لحمولتها ، موقد الغاز الأسطوانى الصغير ، والحلتين الألمونيوم الصغيرتين المسوّدتين بهباب الموقد ، وبضع قطع من أوانى وأدوات الطهى والشاى والقهوة .. وما بين الترابيزة والكنبة تمددت تلك السجادة البائسة التى لا يبدو لها لون من فرط قِدَمها

واتساخها ، وقد تنازعتها التمزّقات بالطول والعرض ، كعجوز افترستها الشيخوخة بغل مجهول المبرر ، فلم تعد تعبأ بسوس تلك الترابيزة الخشبية البالية الأخرى الجاثمة دائمًا فوقها أمام الكنبة ، والتى يقرأ ويكتب عليها (يوسف) ، ويتناول عليها طعامه وشرابه ، أو هكذا كان يفعل حتى صباح اليوم ، ولا بذلك الحذاء الوضيع العطن ، ولا بالشبشب المبلل بماء أرضية الحمّام البلدى المستقل خارج الحجرة ، ولا بالجوارب كريهة الرائحة المتناثرة دائمًا فوقها .

هل بقى فى الحجرة البائسة شىء يستحق النظر إليه ؟

نعم .. تلك الكرتونة الكبيرة .. كرتونة الصحف والمجلات وكتب الأدب والشعر والموسيقى والدراسات النقدية المستقرة فوق الأرض بالزاوية المجاورة للكنبة ، أسفل عود موسيقى قديم مُعلّق بالجدار الذى تتوسطه صورة عائلية كبيرة بالأبيض والأسود لأبوين ريفيين متوسطى العمر ، يجلسان بكنبة إسطمبولى ، وقد جلست فى حضن الأم طفلتان توءمان جميلتان فى الخامسة من عمرهما ، بينما جلس فى حضن الأب طفل وجيه فى الثامنة من عمره ، تسطع على مُحيّاه كل أمارات الذكاء ..

وحينما بلغت عينا (يوسف) هذه الصورة تسمرتا تمامًا على شخوصها بنظرة احتشد فيها عذاب ضارٍ .. عذاب يكاد يفوق عذاب البشرية مجتمعة ، حتى غشيتهما الدموع ، وفاضت زاحفة فوق خديه ، بينما فى صدره احتبست صرخة ، لو انطلقت لصرعت أسماع سكان الحى بأسره .. إنها صرخة مأساته التى أحالت حياته فى لحظات بحرًا من نار قضى ما يزيد على عشر سنوات من عمره يُجدّف فيه بطاقة تفوق طاقة البشر على أمل أن ينجو منه يومًا بالنجاح والشهرة ، لكن لا النجاح فتح له بابًا واحدًا من أبوابه ، ولا الشهرة أعارته إطلالة واحدة من عليائها ، حتى انتبه الليلة إلى أنه قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ..

بلغها وهو بهذه الحال ، فقر ، ووحدة ، وفشل ، ومأساة تزداد سعيرًا مع الأيام ، وتجعل حياته بحر عذاب بلا شطآن ..

إذن فهو عذاب أبدى ..

ولا نجاة منه إلا بنهاية حياته ..

إذن فلينهها ..

ينهها ويرحم نفسه ..

هكذا أحكم الشيطان حيثيات رأيه الأسود الذى صبه فوق بصيرة المسكين ، فأغشاها تمامًا بالسواد ، فإذا به ينتفض واقفًا ، دافعًا قدميه فى شبشبه المبلل ، ومنطلقًا بجنونه ودموعه إلى خارج الغرفة .. مضى مهرولاً فى طرقات الحى المعتمة التى أخلاها صقيع « طوبة » من المارة ، حتى بلغ صيدلية مفتوحة ومضيئة يحفها ظلام وسكون الطريق .. دلف إليها ، فإذا بها هى أيضًا غارقة فى السكون ، وخالية إلا من صيدلانية شابة جالسة إلى مكتبها ، ومنهمكة فى قراءة كتاب أمامها فوق المكتب ، حتى إنها لم تشعر بوجوده إلا حينما سمعته يقول لها :

ـ لو سمحت ..

رفعت عينيها إليه :

ـ أفندم ؟

ـ أريد سم فئران .

ـ حاضر ..

ونهضت آتية له بزجاجة السم .. وضعتها داخل كيس بلاستيك صغير ، وهمّت بأن تناولها له ، فإذا بيدها تتوقف رغمًا عنها

بعفوية .. استوقفتها هيئته البائسة ، وعلامات الانهيار الطافحة على وجهه .. هاجس خطير مرق فى إحساسها ، فأيقظ فطنتها ، أسرعت تبتسم قائلة له بلهجة دافئة ويدها تتراجع بالكيس :

ـ الفئران فى البيوت مشكلة .

وكأنه لم يسمعها ، سألها بوجومه وهو يمسك ببضع عملات معدنية فى يده :

ـ كم تريدين يا دكتورة ؟

وإذا بمداعبتها :

ـ كم تريد أن تدفع أنت ؟

لم يرفع عينيه عن النقود التى بيده استعدادًا لإعطائها ما ستطلبه :

ـ ما تريدينه .

ـ أريد أن أغازلك .

فوجئ .. رفع عينيه إليها فى دهشة ، فإذا بها تستطرد قائلة :

ـ كما ترى ، كاد الملل يقتلنى ، فهل بمقدورك أيها الوسيم أن

تنقذنى منه ؟ أم أنها وسامة بلا شهامة ؟

والتفتت ملتقطة الكتاب الذى كانت تقرؤه من فوق المكتب لتضعه أمامه فوق فاترينة الأدوية ، وهى تمضى مستطردة :

ـ ثم إننى كنت أقرأ فى ديوان شعر كلماته أذابتنى ، فجّرت بداخلى كل ينابيع الرومانسية ، حتى وجدتنى أغمض عينىَ حالمة بوسيم رومانسى يهبط علىَ الآن ، ويغازلنى بهذه الكلمات ، فإذا بك أمامى أيها الوسيم ، فماذا أنت فاعلً بى ؟

وراحت تتطلع إليه بعينيها السوداوين الفاتنتين المتوهجتين بشقاوتها اللاذعة ، بينما رفع هو عينيه عن الكتاب ليتفرس وجهها بدهشة مستبدة أعجزته عن إجابتها ببنت شفة ، مما دفعها إلى الاستطراد قائلة :

ـ ولكن لا .. أنت وسيم شرير ولست رومانسيًا .. فأرة مسكينة تهرب من البرد ، وتأتيك لتحتمى بك ، فتقرر قتلها بالسم بدلًا من أن تمنحها قطعة سكر أو حتى قطعة جاتوه تدفئها ؟ أهذه شهامة ؟ أهذا هو الواجب الذى تقدمه لضيفة جاءتك مستنجدة بك وأمَنتك على نفسها ؟ يالك من شرير !

وكادت ضحكتها تفلت منها لولا أنها سارعت بكتم فمها بيدها ، بينما ازداد هو غرقًا فى دهشته الواجمة وهو يحدّق فيها ، فما كان منها إلا أنها هتفت به مستنكرة فى جدية مصطنعة :

ـ ما هذا ؟ شرير وكئيب معًا ؟! لا .. هذا فوق احتمالى .. اسمع أيها الوسيم الشرير الكئيب ، نسيت أن أخبرك أن الرومانسيات الجميلات مثلى مخبولات ، وكلما زادت رومانسيتهن زاد خبلهن ، وأنا مخبولة ، مخبولة على الآخر ؛ لذلك أقسم لك إذا لم تبتسم فورًا وتغازلنى بكلمة حلوة سأفرغ زجاجة السم هذه كلها فى فمى دفعة واحدة !

وإذا بها تفتح الزجاجة فعلًا بحركة خاطفة ، وتقرّبها من فمها لولا أن يد (يوسف) كانت أسرع منها بضرب يدها ضربة عنيفة أطاحت بالزجاجة ، وهو يصرخ فيها :

ـ لا يا مجنونة .

وسقطت الزجاجة على الأرض هشيمًا ، بينما تعلّقت العيون ببعضها فى نظرة حميمة ، نظرة مشفقة حانية منها ، ونظرة متوترة خجلى منه ، وتذكّر مطلبها فلم يملك إلا التبسّم ، لتبتسم

هى أيضًا ، ابتسامة حميمة حانية داعية إلى الحياة ، وإذا به يقول لها فى خجل ورقة متناهية :

ـ أنا آسف .

فوجئت بعذوبة نبرته .. نبرة رجولية عميقة مُشرَبة بالفخامة والشجن .. وجدت نفسها تتأمل وجهه مليًا ، فإذا بمحيّاه مُشرَبًا بذات العذوبة والرجولة ، وإذا بعينيه نبعى حنان رغم سطوة الحزن عليهما .. هفا قلبها كعصفور اكتشف فجأة أنه حطّ فوق نبع مُصفّى ، بلا تفكير مدت يدها المضطربة بتوترها الشهى محتضنةيده الساكنة فوق الفاترينة ، قائلة له بكل ما فى قلبها من حنو الأنثى وهى تسرى بنظراتها الدافئة الحنونة فوق ملامحه الحلوة الحزينة :

ـ تعال !

وأخذته إلى المقعد الجلدى الذى أمام مكتبها :

ـ تفضل .

جلس ، ووضعت هى ديوان الشعر فوق المكتب قائلةً له :

ـ بإذنك لحظة واحدة .

ودلفت إلى كرفان الصيدلية ، لتعود بعد لحظات بفنجانى ينسون ساخنين ، مدت يدها بأحدهما له :

ـ تفضل .

تناوله منها متطلعًا إليها بامتنان مُشرّب بأحزانه :

ـ متشكر يا دكتورة .

انسابت ابتسامتها الحلوة :

ـ بسمة .. دكتورة (بسمة) .

ثم أردفت مستأذنه مرة أخرى :

ـ لحظة واحدة .

وارتدّت مرة أخرى إلى الكرفان لتخرج منه بمكنسة يدوية راحت تكنس بها هشيم زجاجة السم وتجفف مكانها وهى تقول له :

ـ صرفت الصيدلى المساعد وعامل النظافة قبل حضورك بدقائق .

وفرغت من تنظيف مكان الزجاجة ، فعادت تجلس بمقعدها خلف المكتب ، ممسكة بديوان الشعر ، وهى تردف قائلة :

ـ كى أعيش مع شاعرى المفضّل .

تسمّرت عيناه على وجهها لوهلة ، وكأنها قالت شيئًا عجيبًا ، ثم أطرق إلى الأرض بنظراته ، قائلاً بنبرته الحزينة :

ـ اسمى (يوسف لملوم) .

انفلتت هتفتها مداعبة فى دهشة :

ـ أيضًا ؟!

ـ أيضًا ماذا ؟!

ـ أيضًا اسمك (يوسف لملوم) ؟!

ورفعت الديوان فى يدها قليلاً ، مردفة فى حميمية طاغية واعتزاز :

ـ إنه نفس اسم شاعرى الذى يذيبنى بكلماته وقصائده .

ـ إنه أنا !!!!!!!!

طلقة !!!

طلقة نافذة اخترقت سمع الطبيبة الحسناء بنت الثلاثين ربيعًا ، فتسمّر وعيها بالكامل وهى تحدّق فيه بنظرة حائرة ما بين التيه والوعى ، ولكن الوعى سرعان ما انتصر لتتذكّر الطبيبة على الفور أن التوهّم هو أحد وجوه الاكتئاب الشديد ، وفيه يجد

المريض النفسى أسهل طريق للفرار من واقعه المؤلم .. وجدت نفسها تبتسم له قائلة وهى تجاهد فى إخفاء شفقتها عليه :

ـ بل قد تكون أنت أرَق وأفضل منه .. صحيح هو أشعاره فى غاية العذوبة والرقة ، ولكننى لم أره شخصيًا ، وقد تكون شخصيته مختلفة كثيرًا عن أشعاره ، قد يكون شخصًا بوهيميًا وهمجيًا ، كما هو حال الكثيرين من الشعراء وأهل الأدب والفن ، أما أنت فموجود أمامى بشخصك ، وأراك فى غاية الطيبة والرقة ، وهذا معناه أنك إذا وضعت نفسك فى مقارنة معه فأنت الفائز ، وبشهادة فاتنة مثلى ، أم أن هذه الشهادة لا تكفيك يا حضرة الوسيم ؟

وبدلال ساحر راحت تتطلع إليه مستميتة فى إخفاء شفقتها عليه ، وهى لا تدرى أنها بخطبتها الطويلة هذه قد فضحتها ولم تخفها ،فكان جوابه لها بهدوئه المترَع بالحزن :

ـ انظرى فى صورة الشاعر بظهر الغلاف يا دكتورة !

فوجئت بمطلبه ، وامتدت يدها تقلب الديوان ، بينما عيناها معلقتان بوجهه فى حيرة من أمره ، ثم سحبت نظراتها ببطء

حيرتها من فوق وجهه إلى الصورة ، فإذا بعينيها تتسمران عليها فى ذهول عاصف كاد يغْشى عقلها !! إنه هو !! هو !!(يوسف لملوم) !! معقول هذا ؟! معقول ؟!

وجدت نفسها تعود بنظراتها الذاهلة إلى وجهه لتتفرسه بكل ما لديها من تركيز ، وليتأكد لها تمامًا أنه هو !!(يوسف لملوم) !! كروان الحب كما تسميه هى وصديقاتها .. كروان الحب الذى يحط على شرفات قلوب العذارى ، راسمًا لهن الحب جنة ، وداعيهن إلى الإقبال عليها ، والارتشاف من رحيق أنهارها حتى ترتوى قلوبهن الرقيقة .. إنه هو ! شاعرها الملائكى الساكن بمفرده فى بستان أنوثتها منذ أن فتحت ديوانه « همسات عذراء » الذى أهدته لها إحدى صديقاتها فى عيد ميلادها الفائت ، والذى من ليلتها لم يفارق حضنها كلما آوت إلى فراشها حتى صار مخدَرها الشهى .. تروى قلبها بقصيدة من قصائده ، ثم تغمض عينيها ، فتذهب فى نوم ناعم هنىء .. إنه شاعرها الذى كلما فرغت من قراءة إحدى قصائده نظرت فى صورته بظهر الغلاف لتسأله بقلب خافق : « لمن سطَرت هذا الجمال يا شاعرى » ؟ أية محظوظة

تلك التى تغزل لها جنتها بعذوبة كلماتك ؟ وأين هى ؟ كى أرجوها أن تستضيفنى فى جنتها ولو للحظة واحدة من عمرى .. إنه شاعرها الذى يَسيل الكلمات رحيقًا يصبه فى قلوب العذارى فيحيلها ينابيع من شهدٍ مُصفَّى .. إنه هو !! ويا لها من مفاجأة أكثر من مستحيلة !! بالكاد رفعت عينيها عن الصورة ناظرة إليه ، فإذا بحالته وهيئته يشقَّان قلبها ، ويوشكان أن يشككاها فى أمره مرة أخرى ، لولا أن هاتفها الطيب سرعان ما أدركها بالحقيقة المُرة المنحوتة فى تاريخ عباقرة البشرية ، وهى أن السواد الأعظم منهم وُلدوا وعاشوا وماتوا فى أفران الشقاء والبؤس ، وأن هذا هو مكمن عظمتهم ، فقد هضموا نيران شقائهم ، ثم أخرجوها للبشرية نورًا موصولاً إلى يوم القيامة ، وها هى الأقدار تهديها واحدًا منهم !! وجدت نفسها تزحف بنظراتها على وجهه وقد استحالت شفقتها عليه إكبارًا عظيمًا له .. إنها الآن لا ترى أمامها هذا الكيان الهش المحطم ، الذى يبدو وكأن جبال الأرض ورواسيها بأسرها قد تصدّعت فوقه ، بل ترى كيانًا عظيمًا مهيبًا أقرب لأن يكون كنزًا بشريًا ، وهو ما جعل عقلها يهدر تفكيرًا وهى تواصل زحفها بنظراتها على وجهه ، حتى وجدت نفسها تسأله فى تبجيل عظيم :

ـ أستاذ (يوسف) .. واضح أن حضرتك تسكن قريبًا من هنا .

وجاءها جوابه بإطراقه الحزين :

ـ نعم .

ـ أين ؟

ـ فى حارة الشيخ (سلامة) .

ـ أى منزل فيها ؟ فأنا أعرف الحى كله لأن سكانه جميعًا زبائنى .

ـ فى منزل الشيخ (سلامة) نفسه .

ـ أية شقة فيه ؟

ـ غرفة السطح .

ضربتها الصدمة ، فتخشّبت يدها على فنجان الينسون ، وجحظت عيناها على وجهه ، بينما أرسل هو نظراته أمامه فى كمد ، وبدا واضحًا على الطبيبة الحسناء أن الصدمة بقدر ما شقت قلبها بقدر ما شلت عقلها ، ولكن هذا ليس وقت بلاهة ، أسرعت تعيد تشغيل عقلها ، فإذا بها أمام سؤال محدد شديد الوضوح.. ماذا عليها أن تفعل أو تقول فى هذا الموقف ؟ أتفعل ما صار أكلشيهًا

ثابتًا يستخدمه الناس مع بعضهم فى هذه المواقف ، وهو الدعوة إلى حمد الله وكلمتين طيبتين مما قال الله وقال الرسول ؟ هذا الأكلشيه الذى يجود به الناس على بعضهم فى كرم حاتمى، لا لشىء إلا لأنه مجانى لا يكلفهم شيئًا ، ولو كان يكلفهم جنيهًا واحدًا ما جادوا به ، ثم إنها لا هى ولا هذا الرجل من هؤلاء البشر المختوم على قلوبهم ، إنها مجبولة على الإيجابية وتنفر من السلبية نفور النور من الظلمات ، وأما الرجل فإنه القيمة العالية التى لا يمكن لعاقل أن يعطيها ظهره ، وهل من عاقل يفرِّط فى جوهرة ألقت بها الأقدار فى طريقه ولو جاءت رميتها تحت الأقدام ؟ ليس هذا إنسانًا عاديًا .. إنه ثروة .. جوهرة .. جوهرة حقيقية لا تحتاج إلا إلى رفعها من هذا القاع إلى مكانها اللائق بها ، ومن سيرفعها سيربحها .. وجدت نفسها تعود بعينيها إليه ، تتأمله بنظرة جديدة .. نظرة الفرحة والابتهاج بهدية الأقدار لها .. انسابت ابتسامتها مورّدة وجنتيها ، فالتفت إليها مندهشًا ، فإذا بها تنهض قائلة بابتسامتها :

ـ لحظة واحدة يا شاعرى .

ومضت إلى باب الصيدلية وهى تطلب رقمًا بموبايلها ، وأمام الباب وقفت تجرى مكالمة هامسة ، ارتدّت بعدها إلى شاعرها الذى غمرته الحيرة فى أمرها لتقول له :

ـ هيا بنا .

فوجئ (يوسف) ، وأسرع ينهض فى خجل شديد وارتباك :

ـ أنا آسف يا دكتورة ، آسف جدًا ، نسيت نفسى وتسببت فى تأخير حضرتك .. أرجوكِ سامحينى .. بإذنك .

واستدار منصرفًا ، فإذا بها تهتف به فى دهشة :

ـ أستاذ (يوسف) !

توقف ملتفتًا إليها بخجله :

ـ أفندم يا دكتورة ؟

ـ إلى أين ؟

ـ إلى غرفتى يا دكتورة .

ـ وتتركنى وحدى فى هذه الساعة ؟!

تسمرت نظراته على وجهها من المفاجأة ! لقد ظنها تصرفه

بأدب حتى تغلق صيدليتها وتنصرف ، فما هذا الذى تقوله ؟ وماذا تعنى به ؟ طفحت تساؤلاته فى عينيه وهو يتطلع إليها بدهشته ، فإذا بها تدنو منه حتى وقفت أمامه متطلعة إليه بعينيها السوداوين الفاتنتين المشعتين بريقًا ساحرًا ، وإذا بها تمضى فى معاتبته بحيمية تذيب القلب :

ـ أتعلم كم الساعة الآن يا شاعرى ؟ إنها الواحدة والنصف صباحًا ، ومسكنى فى «أرض الجولف بمصر الجديدة » ، فهل تأمن علىّ أن أقطع هذا المشوار وحدى فى وقت كهذا ؟

انتفض قلبه ، ولولا تلال الغم الرابضة فوق هذا القلب لضمها شاعرها الوسيم فى حضنه .. تحلّقت نظراته الحانية الحزينة على وجهها.. كان أطول منها فبدت بوقفتها أمامه وهى ترفع وجهها الوردى الجميل إليه بنظراتها الحميمة البريئة كقط جميل يتفطّر براءة ورقة وعذوبة .. وجد نفسه يجيبها من قلبه :

ـ تحت أمرك يا دكتورة .

ابتسمت فى سعادة .

ـ إذن تفضل حضرتك انتظرنى فى سيارتى حتى أُغلق الصيدلية .

ـ سأغلقها معك .

وكان ردها سريعًا .

ـ العفو يا شاعرى العظيم .

وكان سؤاله فى إصرار :

ـ أين الأقفال يا دكتورة ؟

★ ★ ★

الفصل الثانى

ما إن جلس (يوسف) داخل السيارة الفخمة حتى غمره إحساس مرير بالخجل من وضاعة ثيابه وشبشبه وهيئته كلها .. إحساس جعله يندم على استجابته لهذه الطبيبة الفخمة مثل سيارتها .. كيف وافقها ؟ وكيف سيدخل حياً راقيًا كهذا ، ويسير فى شوارعه بهذه الهيئة .. إن « أرض الجولف » واحدة من أرقى مناطق « مصر » كلها ، وسيره فى شوارع حى كهذا ، وركوبه سيارة كهذه بهيئته هذه ما هو إلا فضح مكبرَ لحضيضية حاله ، ومن ثم تضخيم مضاعف لشعوره بالهوان ، كيف تركها تفعل به هذا ؟ ثم كيف سيعود من « أرض الجولف » إلى « عين شمس » بهذه الهيئة وفى هذه الساعة ؟ وماذا لو استوقفه كمين أو دورية شرطة من الساهرين على حراسة هذه المناطق من أشرار الليل وما أشبهه بهم الآن ؟ إذن فسوف يكون ختام ليلته السوداء هذه فى التخشيبة ، فمن سيصدَق أنه شاعر وإنسان محترم ؟ أهذا ما كان ينقصه ؟ أما كان يكفيه ما هو فيه ؟ ألا يريد هذا القدر العجيب أن يضع حداً للتنكيل به ؟ ألم يشبع بعد من تلذذه بتعذيبه؟ ماذا يريد

أن يفعل به أكثر مما فعل ؟ كان لديه حق ، كل الحق ، حينما فكر فى الانتحار لأنه الوحيد الذى كان سيضع حداً لهذا الضياع لولا هذه المخلوقة العجيبة التى قطعت عليه الطريق لتضعه فى هذه الورطة .. انفجر إحباطه أشد ضراوة مما كان ، ووجد نفسه يلتفت إلى هذه المخلوقة باختناق يكاد يُزهق روحه ، وبنظرة عتاب مرير على ما فعلته به ، فإذا بها تجيبه بابتسامة مشفقة وهى تنطلق بالسيارة ، وكأنها تشفق عليه مما يفكر فيه ومما يفعله هو بنفسه .. انحرفت من شارع « الميرغنى » يسارًا فى شارع « الثورة » ، صاعدة تلك التبة التى تحمل عمارات « أرض الجولف » .. توقفت أمام عمارة منها تطل مباشرة على مستشفى « فلسطين » ، والتفتت إليه قائلة بابتسامتها المشفقة :

– تفضل يا شاعرى .

نزل ووقف فى مكانه مبادرها قائلاً وهى تدور حول السيارة مقبلة عليه :

– حمدًا لله على السلامة يا دكتورة .

– الله يسلمك يا باشا .

- أتأمرينني بشىء آخر ؟

- آمرك بأن تتفضل معى .

« ما هذه الليلة التى لا تريد أن تنتهى على خير ؟ » هكذا هتف فى نفسه بكمد يوشك تفجير أعصابه ، ثم كان سؤاله لها بهدوء يكظم كمده :

- أتفضل معك إلى أين يا دكتورة ؟!

- إلى شقتنا فى الدور الرابع يا شاعرى .

انفجرت دهشته الساخطة :

- يا دكتورة حضرتك أمام العمارة ، فهل هناك ما يخيفك بداخلها ؟!

وكان رد الدكتورة بشقاوة طفولية مدهشة :

- يا حضرة الشاعر الوسيم النبيل طالما أن سيادتك تطوعت مشكورًا بتوصيلى إذن فأنا أمانة فى رقبتك حتى تسلمنى بيدك لولى أمرى .

كاد يصرخ فيها ساخطًا لولا أن سارع عقله بإمساك لسانه ، فكان جوابه لها كاظمًا غيظه :

- تفضلى .

ومضى معها إلى داخل العمارة .. قادته إلى المصعد ، وما إن دخله حتى كاد يصرخ سخطًا وكمدًا ، فقد وجد نفسه أمام مرآة المصعد الطولية وقد كشفته تمامًا لنفسه بمنتهى القسوة .. أسرع يلتفت مذهولاً إلى الدكتورة .. شقت نظرته وصدمته قلبها .. لأول مرة منذ اكتشفت حقيقة شخصيته تعجز عن إخفاء حزنها لأجله ، فطوال الساعتين الماضيتين كانت تتظاهر بالمرح والبشاشة كى تخفف عنه ما هو فيه بقدر استطاعتها ، حتى فعلتها هذه المرآة الملعونة وذبحته بفضحها له أمام نفسه بهذه البشاعة ، ولكن الطبيبة النبيلة ما كانت لتستسلم ، أسرعت بفتح حقيبتها مستخرجة منها ديوان الشعر ، لترفعه أمام شاعرها المصدوم ، هاتفة به من قلبها :

- أستاذ (يوسف) حضرتك لبست حريرًا لبست خيشًا أنت (يوسف لملوم) .. درة من درر المجتمع .

هم الرجل بأن يجيبها بشىء ، فإذا بها تسرع باحتضان يده بيدها مستطردة فى تبسم ورجاء :

- لا تقل شيئًا يا شاعرى .. لا تقل شيئًا .

وتوقف المصعد ، فانطلقت منه قابضة بيدها على يده ، قبض جواهرجى على جوهرة أصيلة يعتز بها .. فتحت الشقة ، ودلفت به عابرة ريسبشن ضخمًا مؤثثا بفخامة منقطعة النظير حتى بلغت غرفة مغلقة .. اقتحمتها هاتفة ، وهى مازالت قابضة بيدها على يده :

ـ مساء الفل على أعظم بروفسير فى الوجود .

فى صدر الغرفة الضخمة ، وخلف مكتب ضخم آية فى روعة تصميمه كان يجلس رجل عظيم الهالة فى العقد السادس من عمره ، كل أمارات الجلال والبهاء والرقى اجتمعت فى هيئته وعلى وجهه.. كان مستغرقًا فى الكتابة على ضوء أباجورة ذهبية تحفة فى شياكتها ، ومن جهاز اللاب توب الذى على يمينه كانت تنساب فى الغرفة أنغام ناعمة خافتة غاية فى العذوبة لكروان الموسيقى العالمى (جيمس لوست) .. الرجل الجليل بخلوته هذه خلف مكتبه المهيب ، وباستغراقه فى الكتابة وسط بقعة النور الأبيض ، وعلى أنغام الموسيقى الملائكية المنسابة من حوله بدا كأنه لوحة ساحرة من زمن النبلاء .. رفع وجهه إليها من فوق أوراقه مستقبلها بابتسامة رصينة زادت من بهائه :

ـ حمدًا الله على السلامة يا دكتورة .

بلغته فمالت عليه واضعة قبلة عى خده وهى تهمس فى أذنه دون أن تترك يد شاعرها :

ـ وحشت قطتك موت يا بروفسير .

وكان رد الرجل وهو يضمها فى حضنه :

ـ بل أنت التى وحشتنى جدًا جدًا جدًا يا قطتى .

ثم نظر إلى (يوسف) بابتسامته الرصينة الدافئة ، فأسرعت قطته تقدمه له بشقاوتها الطفولية المدهشة :

ـ اسمح لى أن أقدم لحضرتك شاعرى الذى قضيت أكثر من أربعمائة ليلة أحلم باقتحامه قلعتى واختطافه لى على حصانه الأبيض .. الأستاذ (يوسف لملوم) .

هنا نهض الرجل مصافحًا ومرحبًا بالضيف بمنتهى التقدير :

ـ أهلاً وسهلاً بشاعرنا العظيم .

وبطوفان خجله أجابه (يوسف) :

ـ أهلاً بسيادتك يا أفندم .

وعادت الطبيبة الفاتنة تكمل التعارف :

ـ بابا ، وأعظم أب فى الدنيا الدكتور (مدحت خلّاف) عميد كلية الإعلام بجامعة القاهرة .

وإذا بجواب (يوسف) :

ـ وصاحب أعظم وأشجع كتاب فى نقد الإعلام العربى «الشفافية المفقودة » .

فوجئ الدكتور (مدحت) :

ـ حضرتك قرأته يا أستاذ (يوسف) ؟!

ـ ثلاث مرات يا سيدى .

قبسٌ من الإكبار غمر الدكتور (مدحت) ، فزاد من ضغطه على يد الشاعر وهو يصافحه بحميمية وفرحة :

ـ أنا سعيد بحضرتك يا أستاذ (يوسف) .

ـ وأنا سعادتى بسيادتك لا توصف يا دكتور .

هكذا جاء جواب الشاعر عفيًا حيويًا ، فقد طار عنه إحساسه بالضآلة والانهيار ، ونسى مظهره ومأزقه وكل ما كان يُغمه ويخنقه ، وتجلّى ذلك عليه بمنتهى الوضوح ، فكانت سعادة الدكتورة (بسمة) بلا حدود ، وبغمرة سعادتها التفتت إلى أبيها

متطلعة إليه بنظرة ذات مغزى ، فما كان من الدكتور (مدحت) إلا أنه التفت إلى (يوسف) قائلاً بحميميته الدافئة :

ـ أستاذ (يوسف) .. الساعة الآن تقترب من الثالثة فجرًا ، وهذا ليس وقت جدال ، وأعتقد أن حضرتك متفق معى فى هذا .

دُهش (يوسف) :

ـ عفوًا يا دكتور .. ماذا هناك ؟

ـ لى عندك رجاء وأتعشّم ألا تجادلنى فيه .

وكان رد (يوسف) سريعًا صادقًا :

ـ العفو يا دكتور .. أنا تحت أمر سيادتك .

ـ حضرتك تمضى مع الدكتورة (بسمة) كى تأخذ حمامًا دافئًا وتبدّل ثيابك لنتناول عشاءنا معًا ، ثم تدخل لتنام وتشبع نومًا ، وعندما تستيقظ بإذن الله سنتكلم معًا .

حزمة !!

حزمة من مطارق حديدية هائلة هوت فوق رأس (يوسف) ، جاعلته يتطلع إلى الرجل الجليل فى بلاهة طاغية ، ثم يلتفت إلى ابنته العجيبة بنفس بلاهته ، فكان جوابها له بمنتهى الحنو :

ـ كل ما انفجر بداخلك من تساؤلات يا أستاذ (يوسف) احتفظ به حتى تستيقظ من نومك ، فكما أخبرك الدكتور هذا ليس وقت جدال ، ثم إن سيادته أخبرك بأن هذا رجاء ، فهل بمقدور إنسان عظيم متحضّر مثل حضرتك أن يرد رجاء رجل بقامة الدكتور (مدحت خلاف) ؟

ترنحت دهشة الشاعر .. فقد كانت الكلمات وما بها من مشاعر صادقة من القلب أقوى من أية دهشة ، ومن أى جدال ، ومن أية محاولة للتفكير فى الأمر .. وأى إنسان لديه ذرة إحساس يستطيع المجادلة فى مشاعر إنسانية كهذه من ناس كهؤلاء هم أقرب للملائكة منهم للبشر ؟ رغمًا عنه وجد نفسه يطرق إلى الأرض خجلاً ، مجيبًا بمنتهى الأدب :

ـ أنا تحت أمركما .

★ ★ ★

يااااه !!!

أى فرق بين هذه الدنيا ودنياه ؟!

بين غرفته وهذه الغرفة ؟!

بين فراشه وهذا الفراش ؟!

هذه غرفة كأنها قلب إنسانى مبهج حنون .. وهذا الفراش كأنه حضن أم مفعم بالأمومة يهدهد من يطرح جسده فيه ، فيسرى فى حناياه أريج النعاس اللذيذ ، ساحبه إلى جنة النوم الناعم العميق الحنون ..

الحمام الدافئ ، والترينج القطن السميك الفاخر ، والعشاء الشهى المُغذّى ، وشوب الحليب الدسم الساخن ، وغرفة النوم النابضة بالفخامة المبهجة للروح ، والفراش الوثير . كل هؤلاء تكاتفوا معًا كى يهدوا الشاعر المُعذَّب نومًا هنيئًا ناعمًا عميقًا استغرقه إلى ما قبل العصر .. فتح عينيه وظل ساكنًا على ظهره فى الفراش ، عالقًا بعينيه فى سقف الغرفة الأبيض الشاهى بصفاء روحى عجيب ، وكأن روحه وقلبه وعقله وكل خلاياه قد اغتسلوا وتعطّروا وارتووا بسكينة لم يسبق له أن ذاقها قط فى حياته ..

إنه الآن فى تلك المساحة الفاصلة بين النوم واليقظة، يسبح فيها متلذذًا شبه مخدرٍ ، حتى إذا ما بلغ حد اليقظة هبت بداخله كل شياطين الفكر ممطرته بسيل من التساؤلات المتوجّسة .. ما هذا الذى يحدث له ؟ وماذا يريد منه هؤلاء الناس ؟ وكيف يلتقطون

رجلًا بهذا الضياع من الشارع ليفعلوا هذا معه ؟ وماذا سيفعلون معه الآن ؟ وماذا ؟ وماذا ؟ ؟؟؟؟؟ نافورة من التساؤلات الخانقة انفجرت فى داخله دافعة فى وجدانه قلقًا مؤلمًا بغيضًا .. نهض جالسًا فى الفراش باختناقه وقلقه .. ماذا يفعل الآن ؟ مستحيل أن يفتح باب الغرفة ، وليس من اللائق أن ينادى من داخلها .. إذن فلا حل أمامه سوى الانتظار حتى يأتيه أحد رغم أنه فى حاجة شديدة إلى دخول الحمّام .. ربّع ساقيه وألقى برأسه بين يديه مستسلمًا للانتظار الإجبارى البغيض ، ولكن انتظاره لم يطل .. ها هو باب الغرفة يُفتح .. أسرع ينظر إليه فإذا بالطبيبة الشابة الفاتنة مقبلة عليه تسبقها ابتسامتها المتوهجة وتحيتها الحميمة :

ـ مساء الفل .

ثم إذا بها تجلس أمامه فوق حافة الفراش مردفة بشقاوتها المتأججة :

ـ طبعًا « صباح الفل » لن تكون فى محلها الآن ، فأذان العصر على وشك الانطلاق .

انبثق بداخله إحساسه بالخجل مفسرًا كلماتها هذه بأنه أثقل

عليها بتأخّره فى النوم هكذا ، وقد يكون تسبب فى تعطيلها على أى نحو من النواحى .. وجد نفسه يعتذر لها بمنتهى الخجل :

ـ آسف جداً يا دكتورة ؟

اعترتها الدهشة :

ـ آسف على ماذا يا شاعرى ؟!

ـ على تأخرى فى النوم هكذا ؟

ابتسمت مشفقة عليه مما دار بخلده :

ـ يا حضرة الشاعر ! ياحضرة الشاعر ! هل نسيت أننا نحن اللذان رجوناك كى تشبع نومًا ؟

ـ ولكن ..

ولم تجبه الطبيبة الفاتنة الشقية بشىء ، بل راحت تحلّق فوق وجهه بنظرات تتفطّر بالدهشة والسعادة ، فتحركت دهشته هو الآخر :

ـ ماذا هناك يا دكتورة (بسمة) ؟

وإذا بردها مبتسمة :

ـ وهل ستصدقنى ؟

ـ طبعًا يا دكتورة .

ـ أشعر بأن مخى لسع ويوهمنى ـ ليس أكثر من وهم ـ بهذا الذى أنا فيه الآن .

لم يفهم (يوسف) شيئًا ، فراح يتطلع إليها متسائلاً ، فكان استطرادها فى حيرة ناعمة ، وهى تواصل تحليقها بنظراتها البريئة الحالمة فوق ملامحه :

ـ هل مطلوب منى الآن أن أصدّق أن شاعرى الملائكى الذى لم أكن أعرف له عنوانًا ؟! وكان عنوانه هذا أمنية عزيزة أتمنى لو تحققت كى أفوز منه بإطلالة ـ مجرد إطلالة ـ أروى بها روحى وقلبى وكافة حنايا وجدانى ؟! شاعرى هذا الذى كنت حتى سويعات قليلة مضت أجاهد فى لملمة ملامحه من بين أبياته وكلماته وقصائده ، ساعية لأن أرسم له صورة ـ مجرد صورة ـ تربطنى به على البعد ؟! شاعرى هذا الذى أرهقنى مجرد السعى لتكوين صورة له أحفظ بها لقلبى دفأه ؟! شاعرى هذا نام هنا فى بيتنا ؟! ويجلس معى الآن فى غرفة واحدة ؟! وفى

فراش واحد ؟! وينظر إلىّ وأنظر إليه ؟! ويحدثنى وأحدثه ؟! هل مطلوبٌ منى أن أصدّق هذا ؟! كيف ؟! أجبنى يا شاعرى ! أجبنى إذا كان هذا حقيقيًا ، وكنت أنت موجودًا معى حقًا ! أجبنى !

وصمتت مواصلة تحليقها فوق وجه شاعرها بنظراتها المدهوشة المتشككة ، حتى وجد نفسه يطرق بنظراته إلى الفراش مبتسمًا فى تعجب من تقسيم الأقدار ! فهذه واحدة من البشر من فرط سخاء الأقدار معها تحققت كل أمنياتها فى الحياة ، حتى إنها لم تجد شيئًا ينقصها فراحت تختلق لنفسها أمنية طفولية ، وراحت تنفخ فيها حتى جعلتها أمنية العمر التى تسهر لياليها شوقًا لتحقيقها ، فى حين أنه لو سمعها واحد من مطحونى الأقدار لدعا لها الله بالشفاء العقلى ، ولكن ماذا يقول فى هذا هو وأمثاله ؟! رفع وجهه إليها مرة أخرى بابتسامته المتعجبة ، فإذا بها تقول له بابتسامة معاتبة :

ـ أمثالك من دون البشر لا يستهينون بمشاعر .

أسرع يجيبها معتذرًا :

ـ العفو يا دكتورة ، مشاعرك هذه مشاعر نبلاء .

ـ ففيم ابتسامتك هذه إذن ؟!

ـ فى تقسيم الأقدار .

ـ الأقدار منحتك أكثر مما منحتنى أنا وأمثالى .

ـ مواساة رقيقة من حضرتك يا دكتورة .

ـ بل حقيقة يا حضرة الشاعر .. كنوز العالم كله لا تشترى لى موهبتك .

ـ موهبتى هذه طرحتها فى سوق البشر فلم تطعمنى ولم تكسنى .

ـ كان هذا اختبارًا لك من الله ، وقد انتهى ونجحت فيه .

ـ كيف انتهى ؟ وكيف نجحت فيه يا دكتورة ؟

ـ انتهى بأنك لن تعود إلى ما كنت فيه ، ونجحت بأنك من اليوم ستنعم بما جاهدت لأجله .

تحركت دهشته :

ـ عفوًا يا دكتورة .. ماذا تعنين ؟

هنا أمسكت الدكتورة الفاتنة عن الحديث ، معاودة للحظة تحليقها على وجهه بنظراتها المشدوهة المفعمة بالسعادة ، ثم كان جوابها له بتبسّمها الجميل :

ـ إلى هنا وسأتوقف يا شاعرى العظيم ، فهذا هو آخر حدودى ، التفسير وما يليه لدى الدكتور (مدحت خلّاف) .

ثم إذا بها تهب واقفة هاتفة :

ـ آه .. يا لغبائى .. سامحنى يا شاعرى العظيم ، نسيت نفسى ..

ـ حمّام حضرتك جاهز .. تفضل .

ولم يملك شاعرها إلا أن ينهض معها متبعها وهو غارق فى دهشته !!

★ ★ ★

الفصل الثالث

بصعوبة بالغة ، وبإلحاح مرهق من الدكتورة (بسمة) والدكتور (مدحت) تناول (يوسف) غداءه معهما ، حتى إذا ما فرغوا التفت إليه الدكتور (مدحت) قائلاً بابتسامته الدافئة :

ـ موعدنا فى السادسة يا شاعرنا العظيم .

وإذا بتعليق الدكتورة (بسمة) مداعبة باباها :

ـ ٢ × ١ .

وكان رد الدكتور بابتسامته الرصينة وهو ينهض :

ـ نعم يا دكتورة ٢ × ١ .

ومضى إلى غرفة نومه ، بينما (يوسف) يتطلع متسائلاً إلى الدكتورة الفاتنة الجالسة قبالته ، فكان تفسيرها :

ـ الدكتور (مدحت) له نظرية جميلة لم يتخل عنها يومًا منذ أن فتحت عينىّ عليه ، ومضمونها أن غذاء الإنسان ليس فقط فى طعامه وشرابه ، بل يعادلهما تمامًا النوم الصحى غذاءً لمخه وأعصابه ، بل إنه بنومه الصحى هذا يستطيع مضاعفة عمره

مرتين ، وذلك بنومه ساعتين بعمق بعد تناول غدائه ، لأنه سيستيقظ منهما وقد تجددت كل طاقاته واستراحت أعصابه ، فيعيش فترة المساء وكأنها يوم آخر جديد ، وبذلك يعيش يومين فى يوم واحد .. ومن هنا كانت تسميته لنظريته الجميلة هذه ٢ × ١ .

وكان تعليق (يوسف) فى رصانة :

ـ إنها حقًا نظرية مفيدة .

وإذا برد الدكتورة الفاتنة بشقاوتها الطفولية المدهشة ، وبمنتهى الزهو :

ـ طبعًا يا حضرة الشاعر العظيم ، البروفسير (مدحت خلاّف) لا يبتكر إلا كل ما هو جميل ومفيد ، وأجمل ما ابتكره هو أنا !!

لم يتمالك الشاعر ابتسامته :

ـ إذا كنت تقولينها من باب الدعابة يا دكتورة فأنا أراها حقيقة ، تنشئة إنسانة بروعتك هو أجمل ما يمكن أن يفعله أب .

وكان تساؤل الدكتورة الشقية :

ـ أهذا غزل عفيف يا شاعرى ؟!

وكان رده بابتسامته الرصينة :

ـ بل هذه حقيقة يا دكتورة .

ـ إذن فمتى ستغازلنى ؟

لم يملك الشاعر الخجول إلا أن يطرق بعينيه إلى المائدة مندهشًا لشقاوتها ، بينما التفتت هى نحو المطبخ منادية :

ـ فتحية !

وأقبلت الخادمة الشابة :

ـ أفندم يا دكتورة ؟

ـ ممكن نشرب « كولا » وبعدها شاى ؟

ـ أمرك يا دكتورة .

وانصرفت الخادمة ، بينما التفتت الدكتورة إلى شاعرها قائلة بشقاوتها التى لا تهدأ :

ـ طبعًا العقل يجعلنى أحاول أن أُلهيك عن الحديث معى قبل أن تجلس مع بابا ، حتى لا تفتح علىَّ نافورة الأسئلة المكتومة بداخلك ، لذلك دعنى أدعوك لمشاركتى مشاهدة فيلم جديد تحفة ..

ـ تحت أمرك يا دكتورة .

ـ إذن هيا بنا .

وخرجت به إلى الريسبشن حيث أجلسته أمام الكمبيوتر ، وجلست إلى جواره تفتح الجهاز .. لحظات وكانت شاشته تعرض الفيلم الأمريكى « وحدى فى المنزل » .

★ ★ ★

فى تمام السادسة مساءً كان الدكتور (مدحت خلّاف) يجلس خلف مكتبه مستغرقًا فى تصفح موقعه على الإنترنت حينما دخلت الدكتورة (بسمة) ممسكة بيد شاعرها سائلة الدكتور ببشاشتها :

ـ هل سنُعطّل البروفسير ؟

وكان رد الدكتور وهو يستقبلها بابتسامة النبلاء الفخمة التى تمنحه سحرًا خاصًا :

ـ بل كنت فى انتظاركما .

ونظر إلى (يوسف) قائلاً فى تبجيل واضح :

ـ تفضل يا أستاذ (يوسف) .

جلس (يوسف) أمامه ، بينما عادت الدكتورة (بسمة) تقول بخفة ظلها :

ـ ورديتى هنا انتهت ، صيدليتى حبيبتى فى انتظارى .

ودارت حول المكتب آخذة حضنًا حميمًا من أبيها قائلة له :

ـ ستوحشنى يا بروفسير .

ـ وأنت أكثر يا طبيبة .. تعودين بالسلامة .

ـ الله يسلمك .

وخرجت من خلف المكتب لتقف أمام (يوسف) قائلة بنظرة باسمة :

ـ أنت مدين لى بفاتورة يومية يا شاعرى .

أجابها مندهشًا :

ـ تحت أمرك يا دكتورة .

ـ تودعنى بابتسامة وتستقبلنى بابتسامة .

خفق قلبه رغمًا عنه .. عذوبتها ورقتها لا يُقاومان .. انسابت ابتسامة من قلبه :

ـ تعودين بالسلامة يا دكتورة .

ومضت الطبيبة الشابة منصرفة ملاكًا رشيقًا طيبًا فاتنًا ، وراح الدكتور (مدحت) يشيعها بابتسامته التى تعكس ابتهاج قلبه بها .. إنها هدية ربه له ، التى عوّضه بها خير عوض عن فقده

لزوجته الصحفية الشهيرة (منى فوزى) قبل عشرة أعوام فى حادث طائرة مؤلم أثناء عودتها من رحلة عمل فى « واشنطن » .. تعلّقت عيناه بها حتى أغلقت باب الغرفة خلفها ، ثم التفت إلى (يوسف) قائلاً فى حميمية :

ـ أنا سأشرب قهوة فماذا تشرب حضرتك ؟

ـ مثلك يا دكتور .

وضغط الدكتور زرًا على يمينه فأقبلت الخادمة الشابة ، تلقّت منه أمره وانصرفت بينما مد هو يده لـ (يوسف) بعلبة سجائره الـ « M . L » قائلاً :

ـ تفضل .

وبوجومه الذى ارتدّ إليه أجابه (يوسف) :

ـ شكرًا يا دكتور .. أنا لا أدخن .

ـ برافو .

وراح الدكتور يشعل سيجارته بولاعته الفرنسية الشيك ، آخذًا منها نفسًا طويلاً ، ثم عاد ينظر إليه قائلاً بلهجته الرصينة الفخمة :

ـ قرأت ديوانك كاملاً ليلة أمس .. ومنه عرفت سر تعلُّق

الدكتورة (بسمة) بك .

فوجئ (يوسف) بكلمة « تعلُق » ، بينما راح الدكتور يتأمله مليًا لوهلة ، ثم أردف وكأنه يقر حقيقة :

ـ أنت حقًا موهبة أصيلة .

ـ شكرًا يا دكتور .

قالها (يوسف) بوجومه ، ثم أطرق بعينيه إلى الأرض ، مشغولاً بأمر ما يجول بخاطره ، فكان سؤال الدكتور له فى حنو :

ـ فيم يفكر شاعرنا العظيم ؟

ظل (يوسف) على إطراقه لوهلة ، ثم أجابه بوجومه دون أن يرفع عينيه عن الأرض :

ـ فى سؤالين يا دكتور (مدحت) .

ـ أنا تحت أمرك إذا كنت تود طرحهما .

ودخلت الخادمة الشابة بالقهوة ، وضعتها أمامهما كما أشار لها الدكتور وانصرفت ، وعاد الدكتور يتطلع إلى (يوسف) متسائلاً ، فكان رده :

ـ السؤال الأول يا دكتور هو ماذا يحدث بالضبط ؟!

تلتقطون إنسانًا من الشارع وتفعلون هذا معه ، ألا تتفق معى سيادتك أنه شىء غريب ويصعب فهمه .

وبحنوه الجميل سأله الدكتور :

ـ والسؤال الثانى ياأستاذ (يوسف) ؟

ـ ماذا تريدون منى ؟

تلقائية السؤال جعلت الدكتور يبتسم ابتسامة حانية ولكنها لا تخلو من الشفقة ، ثم قال له بحنوه :

ـ تفضل قهوتك .

وارتشف الاثنان من قهوتهما ، وأعاد الدكتور فنجانه إلى موضعه أمامه فوق المكتب ، ثم عاد ينظر إلى (يوسف) قائلاً بأدبه الجم :

ـ اسمح لى يا أستاذ (يوسف) أن أبدأ بالسؤال الثانى «ماذا نريد منك ؟ » عن نفسى أنا أريد منك أن تكون أخًا لى .. أخًا بكل ما تعنيه الكلمة ، أى لك علىّ كل حقوق الأخوّة .

ـ والمقابل يا دكتور (مدحت) ؟

ـ وهل للأخوّة مقابل غير الحب يا حضرة الشاعر ؟

ـ وهل هذا المقابل يكفى فى زماننا هذا يا دكتور ؟

ألا تعلم سيادتك أننا فى زمن الـ ....

على غير طبيعته أسرع الدكتور يقاطعه فى عتاب رقيق :

ـ دعك من هذه الأسطوانة يا حضرة الشاعر ، فهى لا تليق بشاعر وعالم .

ثم أردف يسأله فى لين جميل :

ـ ألست مؤمنًا بالله ورسوله يا أستاذ (يوسف) ؟

ـ الحمد لله يا دكتور .

ـ ألم يشدد الله تعالى ونبيه عليه أفضل الصلاة والسلام على أن المؤمنين إخوة ؟

ـ بلى يا دكتور .

ـ هل حددا لهذه الأخوّة زمانًا أو مكانًا ؟

ـ لا يا دكتور .

ـ إذن لا دخل للزمن بهذا يا حضرة الشاعر ، ولاغرابة فى أن أدعوك لأن تكون أخى ، بل فى هذا إرضاءً منى ومنك لله ورسوله . وخشع قلب الشاعر ، واهتز وسواسه ، بينما استطرد

الدكتور قائلاً بلهجته المفعمة بالإيمان :

ـ أما عن سؤالك الأول « ماذا يحدث ؟ » .. فأجيبك بأن ما يحدث هو رواية مكتوبة مسبقًا عند المولى عز وجل ، وما نحن إلا شخوصها التى يحرّكها خالقها كيف يشاء ، وإلاّ هل لديك تفسير آخر لآن تُفاجأ فتاة بشاعرها الذى كانت تحلم بلقائه داخلاً عليها بالحالة التى كنت عليها ؟ وأن يكون لديها الحكمة والشجاعة لأن تتصرف معك كما تصرفت ؟ وأن تكون هى وأنا ممن يقدّرون أمثالك حق قدرهم ؟ وأن يلقى الله بمحبتك فى قلبينا بهذا الشكل ؟ هل لديك تفسير لكل هذا يا حضرة الشاعر سوى أنها رواية مقدّرة علينا من صياغة خالق عظيم ؟

وبُهت الذى سمع !!

وتعلّقت عيناه بالعالم الإنسان فى دهشة مريض على شفا الهلاك فوجئ بطيف الشفاء يتجسّد له ، وتلقّى العالم النبيل إحساسه هذا ، فإذا به ينهض خارجًا من خلف مكتبه وواقفًا أمامه ، قائلاً له بحنو يفوق حنو الأب على ضناه :

ـ يا حضرة الشاعر العظيم أنت هدية ربى لى .

وجد (يوسف) نفسه ينهض واقفًا متطلعًا إلى الرجل بقلب خافق ، بينما استطرد الأخير قائلاً بابتسامة تفيض حبًا :

ـ هل تقبلنى أخًا لك يا أبو حجاج ؟

وارتمى (أبو حجاج) فى حضنه ، وضمه الرجل فى صدره بمنتهى القوة ، ثم إذا به يردف قائلاً فى أبوّة غامرة :

ـ لن أسألك عما فعل بك هذا ، لأنى أريدك أن تنساه ، أن تقطع كل الخيوط التى تربطك به ، فالماضى فى حالات كثيرة يكون مخلوقًا شريرًا بغيضًا كل همه شد صاحبه إلى الوراء ، فاقطع كل ما يربطك به وانظر إلى الأمام .. إلى الأمل فى الله ..

★ ★ ★

فى الشعر ، فى الأدب ، فى الإعلام ، فى السياسة ، فى كافة نواحى الحياة انفجر الحديث شلالاً متدفقًا بين العالم والشاعر .. ما يقرب من خمس ساعات انقضت وهما يتحاوران ، حتى انتبهوا على دخول الدكتورة (بسمة) عليهما تسبقها هتفتها المصهللة :

ـ وحشتونى .

وابتسم الدكتور (مدحت) ، لا لكلمتها أو صهللتها ، وانما لعودتها قبل موعدها المعتاد بأكثر من ساعتين .. عاطفة الأنثى

تفضحها مهما بلغت من النضج والعلم .. سارعت بالجلوس معهما متسائلة وهى تنقل عينيها بينهما بمنتهى الشقاوة :

ـ ها .. ما الأخبار ؟

ولمحت التغيير الواضح على وجه الشاعر ، فكانت مداعبتها له :

ـ واضح أنها أخبار حلوة طحن .

ثم إذا بها تمد يدها له بعلبة كرتونية فاخرة وهى تقول :

ـ مساء الفل يا شاعرى .

تناول (يوسف) منها العلبة وهو يتطلع إليها متسائلاً :

ـ ما هذا يا دكتورة ؟

ـ موبايل يا حضرة الشاعر الوسيم تتلقى عليه معاكسات معجباتك .

فوجئ (يوسف) ، ولم يدر بماذا يجيبها .. أسرع يلتفت بدهشته وحرجه إلى الدكتور (مدحت) فإذا برده متبسمًا :

ـ شاعر ومعجبة ، ولا شأن لى فيما بينهما .

اشتدت دهشة (يوسف) ، وعاد يتطلع بجم دهشته إلى الدكتورة العجيبة ، فإذا بها تأخذ العلبة منه مرة أخرى ، وتستخرج منها الموبايل واضعة فيه الخط ومشغلته ، ثم معيدته

إليه مرة أخرى قائلة :

ـ انظر فيه وانتظر !

وأخرجت موبايلها وراحت تدوّن عليه كلمات ما ، ثم ما هى إلا لحظات حتى كانت أول رسالة نصية تظهر على شاشة موبايل الشاعر « إلى شاعرى الوسيم الذى استباح قلبى » .. وخفق قلب الشاعر خفقة كادت تفقده السيطرة على نفسه ، وتعلّقت عيناه بعينى الفتاة فى ذهول يكاد يذهب بعقله !!!

★ ★ ★

الفصل الرابع

استقر الأمر على تحويل غرفة الضيوف التى نزل بها (يوسف) إلى غرفة نوم له ، مع تعديل بسيط ، وهو استبدال دولابها الصغير بدولاب كبير امتلأ عن آخره بثياب من أرقى محلات القاهرة ..

وتحولت غرفة الصالون الصغير إلى غرفة مكتب لا تكاد تقل فخامة عن مكتب الدكتور (مدحت) نفسه ..

وجىء من غرفة السطح فى « عين شمس » بكتب وأوراق (يوسف) ، وعوده الموسيقى ، وتلك الصورة العائلية القديمة التى كانت معلقة إلى جوار العود .

وفى أربعة أيام فقط لا غير صار (يوسف) من سكان أرض الجولف .. صفوة المجتمع المصرى بأسره ..

وصارت له أسرة من أرقى أسرها !!

وصارت له خادمة مسئولة عن رعايته !!

وعندما علم الدكتور (مدحت) أنه يجيد قيادة السيارات كان قراره العجيب والفورى بأن تترك له الدكتورة (بسمة) سيارتها

تمامًا ، وتشارك الدكتور فى سيارته باعتبار أنه لا يحتاج إليها إلاَ فى مشوار الجامعة نهارًا !!

وهكذا هى الحياة تستطيع أن تبدّل وجهها من النقيض إلى النقيض بين عشيةٍ وضحاها .. وهى لا تحتاج فى هذا إلا إلى كلمة « كونى » من المولى عز وجل فتكون .

* * *

وعلى غير عادتها قررت الدكتورة (بسمة) الاحتفال بليلة رأس السنة فى الشقة .. قضت ثلاثة أيام كاملة فى تجهيزها وتزيينها حتى أحالتها تحفة رومانسية يخفق القلب لسحرها.. ومع غروب شمس آخر نهار فى السنة ، وعلى أنغام الـ «دى جى» بدأ ضيوف الاحتفال فى التوافد ، ولم تكد تمضى ساعتان حتى كانت الشقة تعج بكوكبة من فاتنات صفوة المجتمع وشبابه ووجهائه من الأصدقاء والأقارب وقد افتتنوا جميعًا بمضيفتهم ، فقد بدت الطبيبة الشابة بجمالها الذى أبدع كوافيرها فى إظهاره ، وبفستانها السواريه الذى صممه لها مصمم الأزياء المصرى العالمى (هانى البحيرى) وكأنها مُهرة نارية شردت لتوها من مملكة الفتنة ..

ولكن هل كان الكوافير والفستان فقط هما السبب فى توهج

فتنتها هكذا ؟ والجواب بالطبع « لا » ، بل كان هناك ما هو أكثر سببًا من الاثنين معًا .. إنه ذلك السر الذى لا يعلمه سوى الدكتور (مدحت) ، والذى راح يواصل حفاوته الأرستقراطية بضيوفه بينما عيناه عليها فى تبسّم العالم ببواطن الأمور وهو يتساءل بداخله « وماذا بعد يا قطتى ؟ » .. ولم يطل انتظاره للجواب .. فوجئ بقطته تتسلل من بين الضيوف مختفيه عنهم للحظات، عادت بعدها بشاعرها فى يدها نجمًا يشع بهاءً .. بدلته الـ « B T M » الكحلية اللامعة مع وسامته مع طوله الفارع مع بنيته الرياضية مع ظهوره فى يد فاتنة الحفل جعلت العيون جميعًا تتعلق به متسائلة ، فكان على الدكتورة الفاتنة أن تسرع بتقديمه لهم ، ولكن تقديمها له جاء بطريقة غير مألوفة بالمرة .. تطلعت إليهم بعينيها المتوهجتين بفرحتها المتأججة قائلة :

ـ كل صديقاتى وكثيرون من أصدقائى طالما صدَعت رءوسهم بالحديث عن شاعرى الذى لم يترك نبضة فى قلبى ، ولا فى عروقى إلاَ وسيطر عليها بعذوبة شعره ، حتى صرت أنام وأقوم على حلم لقائه ، وحتى صار كل من كان يسمعنى أتحدث عنه يحلم معى بلقائه ، وها هو الحلم يتحقق لى ولكم ..

ها هو شاعر الحب والشجن ..

(يوسف لملوم) ..

وفوجئ الجميع ..

ودوّى التصفيق ..

وومضت فلاشات الكاميرات على وجه الشاعر الوسيم ..

وأسرعت كوكبة الفاتنات تحيط به طالبة التصوير معه .. إنها آلية الإحساس والإثارة الجماعية والتى تبدأ بإحساس واحد من الجماعة يكون بمثابة الشرارة التى تشعل إثارة الجماعة كلها ، وهو ما يسمى فى علم النفس بـ « ديناميكية الجروب » ، والتى هى كثيرًا ما تكون وراء شهرة المحظوظين من ذوى المواهب .. واندفعت هذه الآلية لاعبة دورها ، فإذا بفتاة فاتنة عشرينية العمر تسرع بإغلاق الـ « دى جى » ، لتهتف قائلة بمنتهى الانفعال :

- مهلاً يا جماعة ! مهلاً !

والتفتت إلى الشاعر قائلة له بانفعالها :

- اسمح لى أن أقولها لك يا شاعر الحب والشجن ، لقد كنا نتوقع مفاجأة من بسبوستنا الجميلة ، ولكننا لم نكن نتوقع أبدًا أن تكون مفاجأتها بهذه الروعة .. لقد قرأت ديوانك كاملاً ثلاث مرات ، ومن فرط عذوبته وجدتنى أنا أيضًا أنام وأقوم على حلم لقائك ، فهنيئًا لى ولنا جميعًا .

وخفق قلب الشاعر لخطبة الفتاة الجميلة المتوهجة ، وكان جوابه لها وهو يحلّق على وجهها بنظراته المشدوهة :

- لو كنت أعلم لطلبت منهم أن يلفونى فى أوراق الديوان حتى أجد نفسى بين يديك يا عود الورد .

وضج الريسبشن بالضحك والتصفيق .

وهتف شاب عشرينى العمر :

- أين تحيتك لنا يا شاعرنا ونجم ليلتنا ؟

وهتفت (ندى) ابنة خالة الدكتورة (بسمة) والتى تقاربها سنًا :

- قصيدة نبضتى .

وأردفت بانفعالها الطاغى :

- لقد أذابتنى على الورق ، فما بالى لو سمعتها منك بإحساسك يا عندليب ليلتنا .

ودهش الشاعر من جرأة وسخونة الكلمات ، وأسرع يلتفت إلى الدكتورة (بسمة) بدهشته ، فكان ردها باسمة :

- إنهن قارئاتك معجباتك ، وهذا حقهن عليك .

وعادت (ندى) تصيح :

ـ فليتفضل شاعرنا ، ولنصغ له جميعًا .

وأسرعت تضع ميكرفون الحفل فى يده ، ليجد نفسه يتأملها بنظرة تفيض حبًا وامتنانًا ثم يدور بنفس النظرة على وجه الجميع ، حتى إذا ما عانقهم جميعًا بنظرته المحبة الممتنة خاطبهم قائلاً :

ـ هذه القصيدة ما هى إلا نبضة منى وأنتم بقية نبضاتى .

ودوّى التصفيق شكرًا له ..

ثم ساد الصمت المطبق ، لينساب صوت الشاعر بقصيدته وبقمة إحساسه :

نبضتى ..

نبضتى التى يومًا غافلتنى .. وغادرتنى ..

ألقيتُها يومًا حسناء تختال على المرافئ ..

والقلوب من حولها تتساقط ما بين محومٍ وظامئ ..

سألتُها همسًا :

أما من حدٍّ لهاك الغُربة ؟

قالت:

كثُرت مرافئى سعيًا وراء وطنى ..

أجبتها ويدى على قلبى ..

هنا وطنك ..

هتفت بفرحتها ..

نعم الأوطان قلبٌ دافئ ..

وانفجرت عاصفة عاتية من التصفيق والهتاف والصفير فى هوس ارتجت له القلوب ..

وضربت المفاجأة الشاعر ، فشخصت عيناه وهما تدوران على الوجوه المتهللة والأيادى الملتهبة بالتصفيق غير مصدق لما يراه ..

وإذا بالدكتور (مدحت خلّاف) يهتف من آخر الجمع وبأعلى صوته :

ـ أحسنت يا شاعرنا .

وتسمرت عينا الشاعر على العالم بذهوله الجم حتى صاح به شاب :

ـ نجم يا شاعرنا .. والله العظيم نجم .

التفت إليه الشاعر ، ووجد نفسه يجيبه فى الميكروفون ذهوله الطاغى :

ـ يا لكم من مفاجأة !!

وإذا بهتفة فتاة من أجمل الموجودات :

ـ بل يالك أنت من نبضة !

وإذا بأخرى تندفع متشبثة برقبته ، وطابعة قبلة حميمة على خده !!

وارتج الشاعر .. ارتج من أعماقه ، وأسرع يلتفت إلى الدكتورة (بسمة) الواقفة إلى جواره ، فإذا بردها غمزة تهنئة من نار بطرف عينها ..

وفجأة حدث ما أنزل سهم الله على الجميع .. اندفع الشاعر جريًا من بينهم قاصدًا غرفته ، ليغيب فيها لحظات ارتد بعدها جريًا حاملاً عوده الموسيقى ، ووقف يتلفت بحثًا عن مكان يجلس به ، فإذا بحسناء أربعينية العمر تهب واقفة هاتفة به :

ـ هنا .. تعال هنا مكانى .

وأسرع الشاعر يجيبها فى دهشة :

ـ العفو يا هانم .

فماكان منها إلا أنها جذبته عنوة من يده ، هاتفة به بمنتهى الحميمية :

ـ اجلس !

وجلس الشاعر محتضنًا عوده ، وإذا به يخاطب الجمع قائلاً :

ـ سأغنى لكم أغنية من كلماتى وتلحينى .. يارب تعجبكم .

ودوّى تصفيق التشجيع من الجميع ، بينما ضربت المفاجأة الدكتورة (بسمة) والدكتور (مدحت) فأسرعا يتبادلان نظرة دهشة ، عادا بعدها يتطلعان إليه بدهشتهما وهو يستطرد قائلاً :

ـ الأغنية اسمها « أنا والدنيا » .. وكلماتها تقول :

جيتها ..

غصب عنى جيتها ..

ولقتنى بحبها ..

مجنونة .. وبرضه بحبها

قاسية .. وبرضه بحبها

لعبتها أنا .. وبرضه بحبها

جابتنى ليه ؟

عايزة إيه ؟

آخرتها إيه ؟

مش عارف

وبرضه بحبها

مرة تفرّحنى

وعشرة تجرّحنى

واسألها ليه ؟

تقولىّ لعبتى

وبرضه بحبها

تعبت منها

جريت أسيبها

لقيتنى فى حضنها

★ ★ ★

الفصل الخامس

حتى ليلة الأمس كان فكر الدكتور (مدحت خلّاف) كله فى أمر (يوسف لملوم) يدور حول حقيقة أن (يوسف لملوم) شاعر ديوان ، وشعر الديوان ليس مهنة يعيش منها الشاعر لأنه لا يدَر عليه دخلاً .. قد يصنع له اسمًا ولكنه لا يأتيه بمال ، بل إنه فى حالات كثيرة يحتاج إلى الصرف عليه من جيب الشاعر إلى ماشاء الله .. ومن هنا فالشاعر لابد له من عمل يعيش منه .. ومن هنا راح فكر الدكتور (مدحت) كله يتمحوَر فى اتجاه ضرورة تدبير عمل ملائم لـ (يوسف) .. عمل يكون عمودًا لحياته كإنسان ، وضاخًا للعافية فى وجدانه كشاعر .. ومن هنا راح الدكتور (مدحت) يضرب أخماسًا فى أسداس مجاهدًا بفكره للتوصل إلى هذا العمل الملائم ، حتى كانت ليلة الأمس ـ ليلة رأس السنة ـ فإذا به أمام هذه القنبلة التى فجّرها (يوسف) .. إنه شاعر غنائى ، بل وملحن .. ملحن دارس الموسيقى على أيدى كبار أساتذة الموسيقى فى « مصر » بمعهد الموسيقى العربية .. أى إنه مشروع فنى يمثل فى عصرنا هذا كنزًا فنيًا وماديًا .. كنزًا أسقطه القدر بين يديه هو تحديدًا ، وهو ما يعنى أنها سقطة

متعمَدة من القدر لأسباب ستتضح توّاً ..

* * *

ـ أنا فى انتظاركما غدًا .

هكذا كان جواب الموسيقار الكبير (منير الوسيمى) نقيب المهن الموسيقية للدكتور (مدحت خلاّف) فى نهاية المكالمة التليفونية التى أجراها الأخير .. إنهما صديقان منذ ما يزيد على العشرين عامًا ، وبخلاف صداقتهما ربطهما همّ واحد منذ اعتلى كل منهما منبره ، ألا وهو محاولة كبح جماح هذا التردى المريع فى الأغنية المصرية ، وقد دفعهما همهما هذا إلى البحث فى الأمر بجدية ساعين إلى الوقوف على عوامل هذا التردى ، وكم كانت دهشتهما حينما اكتشفا أنه ـ أى هذا التردى المؤلم ـ يكاد يكون لا علاقه له بثلاثية أعمدة الأغنية .. الكلمة واللحن والصوت .. وأن هذه الثلاثية فى السواد الأعظم من الأغنيات المنهمرة على ساحة الغناء بريئة تمامًا منه ، وإنما مرده كله إلى عامل آخر ،ألا وهو إغراق الأغنية بهذا السيل الجارف من العرى وسفاهة لغة الجسد ، وأكبر دليل على ذلك أن من يسمع نفس هذه الأغنيات من الإذاعة يُفاجأ بحلاوة كلماتها وعمق معانيها وروعة ألحانها وطرب أصوات مغنيها .. إذن فالكارثة

فى هذه السفاهة الجسدية التى تَصبها مطربات ومطربو الألفية الثالثة على طربهم فيسقطون به ، والتى جنوا بها على مواهبهم قبل أن يجنوا على جماهيرهم، وإذن فهذا هو الداء الذى وضع الصديقان المتخصصان أيديهما عليه ، ومن هنا كان الدواء الذى توصلا إليه هو السعى إلى ضخ مواهب جديدة خالية من الإسفاف وغير قابلة له فى ساحة الغناء ، وعلى أن تقبل أن تكون طرفًا فى صفقة مضمونها النجومية مقابل الحفاظ على كرامة الطرب المصرى صاحب أعظم تاريخ فنى فى حضارة البشرية.. ومن هنا كانت فرحة الدكتور (مدحت خلاَ) الغامرة بهذا الكنز الذى أسقطه القدر بين يديه متمثلاً فى (يوسف لملوم) ، ومن هنا أيضًا كانت مسارعته بالاتصال بصديقه الموسيقار الكبير (منير الوسيمى) ، وليجد (يوسف لملوم) نفسه جالسًا أمامهما ، يتلقى عرضهما بأن يكون طرفًا فى صفقتهما النبيلة ، فكان جوابه لهما على الفور ، وبفرحة جنونية تكاد تذهب بعقله :

ـ أنا ملك أيديكما .

* * *

سبعة عشر يومًا لا أكثر وكان (يوسف لملوم) يجلس أمام سوبر مطربات مصر المطربة (أميرة شاهين) يُسمعها مجموعة من أغنياته على عوده فى صالون الموسيقار (منير الوسيمى) والذى اتخذ مجلسه فى مقعد يتوسط مقعديهما مصغيًا له بأذنه الموسيقية وبكل تركيزه ، بينما جلس صديقه الدكتور (مدحت) قبالته يشاركه السمع بنفس الاهتمام ، وبدا جليًا على المستمعين الثلاثة أثر حلاوة أغنيات (يوسف) على مسامعهم ووجدانهم ، حتى إذا ما شرع فى الشدو بأغنية « أنت قدرى » كانت كل ذرة فى وجدانهم تنتفض منتبهة لعذوبة اللحن والكلمات ، ثم كان تصفيقهم وهتافات استحسانهم أكثر من مرة حتى إذا ما ختمها كانت تحيتهم له عاصفة من التصفيق والهتاف ، وكانت هتفة (أميرة شاهين) بفرحة طاغية وهى تقفز جالسة إلى جواره :

ـ هذه هى ! هذه هى ! جامدة ! جامدة !

بينما التفت الدكتور (مدحت) إلى الموسيقار (منير الوسيمى) بنظرة متسائلة عن رأيه ، فكان تعليقه لـ (يوسف) برصانته المعهودة :

ـ الله يفتح عليك يا أستاذ (يوسف) .. كلمات هائلة .. ولحن رائع ..

وعادت (أميرة شاهين) تهتف فى (يوسف) بفرحتها :

ـ أنقذتنى .. أنقذتنى ، فقد كدت أموت من لهفتى على أغنية أحسها وتكون قنبلتى فى حفل ليالى التليفزيون القادم .

ثم التفتت إلى الموسيقار (منير الوسيمى) مستطردة :

ـ برافو يا أستاذنا .. اكتشافك هائل .

وكان رد الموسيقار وهو يشير إلى الدكتور (مدحت) فى تبجيل :

ـ انه اكتشاف الدكتور

(مدحت) .

فالتفتت إلى الدكتور (مدحت) بفرحتها ، قائله له فى امتنان :

ـ برافو يا دكتور (مدحت) .. برافو .

ثم استدارت مرة أخرى إلى (يوسف) ، وإذا بها تحتضن يديه بيديها بمنتهى الحميمية ، وهى تقول له :

ـ (أبو حجاج) حبيبى .. أمامنا ثلاثة وأربعون يومًا بالعدد ، أى علينا أن نبدأ بروفاتنا من الغد .

* * *

صعب !!

بل منتهى الصعوبة على إنسان أن يُقذف به من قاع جهنم إلى الجنة هكذا دون فاصل زمنى يُذكر .. هذه المنعطفات الحادة فى مشوار الحياة تثيرفى صاحبها هياجًا وجدانيًا لا يُحتمل ، و(يوسف لملوم) تحديدًا بحكم تكوينه الشاعرى الأرهف من النسمة يصعُب عليه أن يحتمل هذا الذى يحدث معه .. ومن هنا كانت هرولته إلى الدكتورة (بسمة) ليقف أمامها مهزوزًا من أعماقه ، مستغيثًا بها بنظراته المضروبة بزلزاله .. وفوجئت الطبيبة الفاتنة .. فوجئت بشدة ، لا بحالته هذه ، ولكن بهذا الشعور الصادق الجامح المنطلق من عينيه بصدق لم يسمح لذرة كبرياء بأن تعترضه ، فالكبرياء مثل أى شىء وجوده فى غير موضعه نقيصة يخسر بها صاحبها .. إنه يقف أمامها مستغيثًا بها بنظراته طفلاً كبيرًا بريئًا لا يحتمل ما هو فيه ويغلبه شعوره الصادق بالاحتياج إليها .. إلى حضنها .. إلى واحتها .. شعوره بأنها مرفأه .. ملاذه .. شعوره بأنه بها ولا شىء بدونها .. كانت الساعة تقارب العاشرة ليلاً .. وكانت الطبيبة الفاتنة تجلس إلى مكتبها فى الصيدلية تطالع بعض عروض الأدوية حينما فوجئت به يقف أمامها بحالته هذه .. انفجرت فرحتها فى قلبها وعلى وجهها ، وانفلتت هتفتها فى خفوت وتبسّم وهى تهب واقفة :

ـ ما هذه المفاجأة الحلوة ؟!

همَّ بأن يسألها فى حرج :

ـ ممكن .....

ولم تدعه يكمل سؤاله :

ـ طبعًا ممكن .

وأسرعت تلملم أوراقها جانبًا فوق المكتب ثم التفتت قائلة للصيدلى الخمسينى المشغول بصرف أدوية لزبونة واقفة أمامه :

ـ أنا منصرفة يا دكتور (على) .. تصبح على خير .

ـ وحضرتك من أهله يا دكتورة .. مع السلامة .

والتفتت مرة أخرى إلى (يوسف) تسأله :

ـ سيارتك معك ؟

ـ عملت حسابى .. تركتها للدكتور (مدحت) .

أسرعت تناوله مفاتيح سيارتها :

ـ مفاتيح سيارتك الثانية .. هيا بنا .

انطلقا مهرولين إلى السيارة الواقفة إلى جوار الصيدلية .. قفزا بداخلها ، وأسرع هو يدير محركها بمنتهى اللهفة ، ولكن

ضيق الحارة التى تتوسطها الصيدلية أرغمه على القيادة ببطء وحذر .. وجد نفسه يسأل الطبيبة الفاتنة الجالسة إلى جواره :

ـ ألم تجد بنت «أرض الجولف» سوى حوارى «عين شمس» لتفتح فيها صيدليتها ؟!

وكان الرد عتابًا باسمًا :

ـ أهل الحوارى هم أحوَج الناس إلى الدواء والرعاية الصحية يا حضرة الشاعر .

أخجله العتاب الإنسانى .. التفت إليها بابتسامة اعتذار وهو يعبر مزلقان «عين شمس» ، انطلق بعدها على الطريق الكبير المحاذى للسكة الحديد وكأنه يهرب من حرجه ، فما كان من الطبيبة الفاتنة إلا أنها اعتدلت بكامل جسدها نحوه محلقَة على وجهه بنظراتها الباسمة لوهلة ، ثم إذا بها تردف قائلة :

ـ ثم إن بنت «أرض الجولف» هذه خرجت من حوارى «عين شمس» بكروان حكاية !

فوجئ .. التفت إليها بدهشته فإذا به مخطوف فى جنة مسحورة .. جنة عينيها وقد سطعتا بالحب والإعجاب والجرأة والشقاوة ، والدعوة إلى الارتشاف من رحيق جنة لم يبلغها

خياله المجنَّح يومًا ، وهو الشاعر الذى يمتلك مفاتيح رائعات ممالك الخيال ، ويمتلك أيضًا قلبًا مثل قطعة البسكويت .. وذاب البسكويت فى الرحيق ، حتى إن (أبو حجاج) لم يفق من سكرته إلَّا على قفزة السيارة إلى أعلى وسقوطها مرة أخرى فوق الأرض بمنتهى العنف .. كاد ينفجر غيظًا من جبروت المطب الصناعى السمين الذى فعلها به لولا انفجار (بسمة) ضحكًا من المفاجأة ، ومن منظره المضحك وهو مغتاظ :

ـ شكلك يجنن يا (أبو حجاج) وأنت مغتاظ !

انفجر ضاحكًا معها .. نوبة ضحكهما وسعادتهما الغامرة جعلت شابًا بسيط المظهر يقف بالرصيف يبتسم لهما .. لمحه (يوسف)، فإذا به يتمتم قائلاً وهو ينظر إلى الشاب فى مرآة السيارة المعلقة أمامه :

ـ يومًا ما ستنالها .

دَهشت (بسمة) :

ـ أتَحدث نفسك يا (أبو حجاج) ؟!

وكان جواب (أبو حجاج) فى تبسَم :

ـ أحدث شابًا ابتسم لسعادتنا .

ثم عاد ينظر أمامه فى صفاء وشرود باسمًا مستطردًا :

ـ فى يوم من الأيام كنت أجلس على كورنيش النيل أمام فندق «النيل هيلتون» غارقًا فى همومى ، وإذا بعينى تقعان على شاب وسيم يدخل ساحة الفندق بسيارته الشيك وبفتاة حكاية فى جمالها تجلس إلى جواره وقد غرق الاثنان فى ضحكهما بمنتهى السعادة .. لحظتها كنت فى عز بؤسى وضياعى ، ومع ذلك وجدتنى ابتسم من قلبى لسعادتهما لدرجة أننى نسيت ما كنت فيه .. وهاهى الأيام تدور وأجد نفسى فى جنة أحلى من جنة هذا الشاب .. سيارة أشيك من سيارته ، وغزالة أجمل من غزالته .

وصمت لوهلة متفكرًا فى المغزى ، وعندما بلغه ابتسم يلخصه :

ـ النعمة طفلة بريئة تجرى إلى من يبتسم لها .

عذوبة إحساسه جعلت (بسمة) تحلق بنظراتها المتأملة على وجهه وقد استحالت شقاوتها إكبارًا خالصًا .. وجدت نفسها تقول له :

ـ أستاذ (يوسف) أنت إنسان جميل .

التفت إليها معاتبًا بابتسامته المضيئة بصفاء قلبه :

ـ مجاملة جميلة أفسدتها كلمة « أستاذ » يا قطتى .

قالها وهو يتوقف على جانب طريق الأتوستراد الذى كان قد

بلغه فى غمرة حواره .. نزل من السيارة ليقف مستندًا عليها بظهره ، داسًا يديه فى جيبى معطفه الأسود الأنيق ، ومرسلًا نظراته الصافية بعيدًا فى جوف الصحراء .. الطريق العريض النظيف ممتدًا على الجانبين ، تغمره الأنوار الذهبية الساقطة عليه من أعمدة الإنارة الممتدة على جانبيه .. ومن خلفها الصحراء المغلفة بظلام خفيف لطيف ممتدة حتى الأفق فى استواء ووداعة .. والسكون الحالم لا تقطعه سوى الزعقات الخاطفة للسيارات المارقة على الطريق كمردة شياطين أسعدها البراح والخلاء .. اللوحة بجملتها أخذت بقلب الشاعر ، فانطلقت نظراته الحالمة تنهل منها ، بينما وقفت (بسمة) إلى جواره تتأمله مليًا وقد أخذتها هالة الشاعر التى تبدت عليه جلية فى وقفته وفى نظرته الشاعرية .. وجدت نفسها تقول له فى انبهار ملأ قلبها ، بينما عيناها تنهلان من هالته :

ـ أنت فعلًا أستاذ حتى فى إحساسك .

ـ لا فضل لى فى هذا يا دكتورة .. الإحساس نعمة من الله .

مضت تروى عينيها وقلبها من عذوبة إحساسه البادية عليه ، ثم إذا بها تسأله بانبهارها :

ـ كيف كنت فى طفولتك يا شاعرى ؟

انسابت ابتسامته رقيقة حالمة وهو يشرد بعينيه بعيدًا ، وكأنه طار إلى سماء جنة بعيدة :

ـ كنت أسعد طفل فى العالم .

ـ وصمت لوهلة ضاربًا بجناحيه فى سماء جنته البعيدة ، ثم أردف بابتسامته الرقيقة الحالمة :

ـ ومن فرط سعادتى ظللت متمسكًا بطفولتى حتى تخطيت العشرين من عمرى .

ابتسمت مداعبته :

ـ وتخلَّيت عنها بعد العشرة الطويلة هذه ؟!

ـ هى التى تخلت عنى .

ـ كيف ؟

ـ ذهبت مع الذين كانوا يمنحوها لى .

ـ من هم ؟

ـ أبى وأمى وشقيقتاى .

ـ وأين ذهبوا ؟

ـ ماتوا .

هوى قلب الطبيبة الشابة ، بينما أردف هو وقد احتقن وجهه بهجمة عذاب شرسة طليقة من القلب :

ـ أبى وأمى كانا فلاحين بسيطين ، ولكنهما كانا يمتلكان قلبين أجمل من الزرع الأخضر .. كانا أطيب وأحن من بعضهما .. وكانا مضربًا للمثل بقريتنا كلها فى حبهما لنا أنا وشقيقتى ، ولدرجة أن أهل القرية جميعًا كانوا يتندرون بمعاملة أبوينا لنا ، فقد ظلا يتسابقان فى تدليلنا حتى صرنا شبابًا ، ولم يكن يخطر ببال أحد منهم ولا منا أنه سباق الوداع .

وصمت للحظة محاولاً منع دموعه ، ثم مضى مستطردًا وهو يرسل بنظراته المحتقنة بعيدًا إلى مشهد لا يراه سواه :

ـ كنا عائدين من فرح قريبة لنا فى « إمبابة » إلى قريتنا فى « كفر الشيخ » بسيارة استأجرناها بسائقها لتقضى الفرح معنا .. وفى عودتنا قبل الفجر لاحظنا أن السائق غير طبيعى فى قيادته على الطريق الزراعى ، واكتشفنا أن سيادته طحن نفسه بالمخدرات فى الفرح ، فأخذنا ننبهه إلى الطريق مرة ، وثانية ، وقبل الثالثة كان قد طار بنا من فوق أحد الكبارى ليسقطنا فى الحقول تحت الكوبرى ، ولأفيق أنا فى المستشفى بعد تسعة أيام ، وثلاث عمليات جراحية لأجد الجميع قد ماتوا ..... إلا أنا .

* * *

الفصل السادس

لأول مرة منذ أن افتتحت الصيدلية قبل ثلاث سنوات تتخلف الدكتورة (بسمة) عن الذهاب إليها يومًا .. أتت عليها السابعة مساءً وهى مستلقية فى فراشها غارقة فى شرودها ، وهو ما جعل الدكتور (مدحت) يرفع حاجبيه دهشة بمجرد أن وقعت عيناه عليها .. كان مستيقظًا لتوه من نومه المعتاد بعد العصر وهو ما جعله منتعشًا صافى الذهن وهو يقف بباب غرفتها متطلعًا إليها بنظراته الدهشة الباسمة .. انتبهت إليه فنهضت جالسة فى الفراش ، بينما تقدم هو منها جالسًا إلى جوارها ، مداعبها فى تبسّم وحنو :

ـ حالة حب يا عصفورتى ؟!

ـ حالة عدم توازن يابابا .

ـ عدم التوازن هو أقوى أعراض الحب .

ـ وحالة خوف !.

ـ مم ؟!

رفعت عينيها إلى السقف بنظرة اختناق ، ثم عادت تنظر إلى أبيها فى تمزق مؤلم قائلة :

ـ (يوسف) حتى الآن لا يعلم أننى مطلقة .. لقب « دكتورة » الملتصق باسمى حجب عنه هذه المعلومة من ناحية ، وحساسيتى من أن تهتز صورتى فى نظره جعلتنى أتحاشى ذكرها أمامه من ناحية أخرى .

دُهش الرجل :

ـ ما هذا يا دكتورة ؟! هل مازال الطلاق وصمة فى نظرك ونحن فى الألفية الثالثة ؟!

وكانت هتفة الطبيبة سريعًا :

ـ لا يا بابا .. المشكلة ليست فى طلاقى .

ـ فيم إذن ؟!

ـ فى سبب هذا الطلاق .. فى خانة الشبهة التى غرسنى فيها (عزت) قبل أن أنتزع منه طلاقى .

وراحت تحرك رأسها كمدًا ، ثم مضت بائحة بما يكمدها :

ـ أى إنسان يعلم بالقصة سيكون معذورًا فى الربط بين قضيته

الحقيرة فى تجارة الدم الملوث ، وبين كونى كنت زوجته حتى اكتشاف أمره والقبض عليه ، وكونى طبيبة كنت أعمل معه فى نفس المستشفى .. طبيبة زوجة طبيب فاسد ، وتعمل معه ، من الصعب تبرئتها من الشبهة .. صعب جداً يا دكتور .

طفح الألم على وجه الرجل :

ـ وهل نسيت أنك أنت التى أبلغت عنه ؟

وكان رد الابنة بألم أكبر :

ـ وهذه أيضًا قد تكون علىّ وليست لى ، فمجتمعنا مازال يستنكر إفشاء الزوجة لسر زوجها ولو كان سره جرمًا .

ازدادت دهشة الرجل :

ـ كيف يا دكتورة ؟! كيف ؟!

ـ من وجهة نظرهم انفصلى عنه ولا تفضحيه .. دعيها تأتى من غيرك .. إنه زوجك .

ـ منطق متخلف لا يليق أبدًا بطبيبة أن تعمل له حسابًا .

ـ أنا لا أعمل له حسابًا يا بابا .. بالعكس أنا فخورة بما فعلت .. ولكن المشكلة فى الطرف الآخر من المعادلة .. هل سيرانى فى هذا الموقف بارة بالمجتمع أم واشية بزوجى ؟

هنا انفرجت أسارير الرجل ، فقد وضعت بين يديه حل معضلتها بنفسها دون أن تقصد .. مد يده محتضنًا خدها بكفه قائلاً فى تبسّم وبمنتهى الحنو :

ـ موقفه سيكون فيه الخير لك فى الحالتين يا دكتورة ، لأنه سيكشف لك عن جوهره .

ثم إذا بالحنو الذى فى ابتسامته ينقلب سخرية ومرارة خالصة وهو يقول :

ـ ثم إن القضية برمتها تم غسلها يا دكتورة ، والباشا طليقك (عزت حمدون) تم غسله وصار عضوًا بمجلس الشعب ونجمًا فى الحزب .

هنا انفلت سؤال الطبيبة الشابة بمنتهى الدهشة :

ـ صحيح يا بابا ! كيف حدث هذا ؟! كيف يرفعون مجرمًا سمم

دماء الناس وتلاعب بأرواحهم بهذه الحقارة ؟!

وكان جواب الرجل بمنتهى المرارة :

ـ أو لـم تفهميهـا حتى الآن يا دكتـورة ؟! الشعـار الآن « البقاء للأفسد » !!

* * *

تحوّلت شقة (أميرة شاهين) على نيل « المعادى » إلى ورشة عمل تجمع (يوسف) بالمطربة الكبيرة وفرقتها الموسيقية كل ليلة من السابعة حتى ساعات الفجر .. حالة من الحماس الطاغى والوجدانية المتدفقة فجرتها عذوبة كلمات أغنية « أنت قدرى » ولحنها الرائع فى المطربة وفرقتها ، ودفعت بالمطربة لأن تطلب من (يوسف) أغنية أخرى تشارك بها أيضًا فى نفس الحفل، فما كان منه إلا أنه فاجأها فى الليلة التالية مباشرة بأغنية « نوّرت شموعى » التى جعلتها تنتفض مصفقة وراقصة من شدة فرحتها بها ، فقد كانت مزيجًا رائعًا بين الأصالة والشبابية .. وعلى الفور بدأت بروفاتها هى الأخرى .

أيام .. وارتفعت ستائر مسرح التليفزيون عن (أميرة شاهين) ليستقبلها جمهور الحفل الغفير بعاصفة هائلة من التصفيق

والتهليل والصفير ، ولترد المطربة الكبيرة تحيتهم بقبلاتها المفعمة بفرحتها ، ثم تستهل وصلتها الغنائية قائلة :

ـ سأغنى لكم الليلة أغنيتين جديدتين من كلمات وألحان جوهرة مصرية أصيلة الشاعر والملحن (يوسف لملوم) .

وضجت قاعة المسرح بالتصفيق ، بينما (يوسف) فى الصف الأول من مقاعد المسرح يجلس مطحونًا بتوتره بين الدكتور (مدحت خلاّف) والموسيقار الكبير (منير الوسيمى)، والدكتورة (بسمة) وصديقاتها وقد راحوا جميعًا يلهبون كفوفهم بالتصفيق وهم ينظرون إليه ، بينما هو يكاد يصرخ فى المطربة بأن تبدأ الغناء .. إنه يكاد يموت من اللهفة على معرفة رد فعل هذا الجمهور ، والذى به سيتحدد مصيره .

وانسابت موسيقى أغنية « أنت قدرى » ..

وبدأت المطربة الكبيرة فى غنائها بمنتهى الإحساس لتُفاجأ بالجمهور يقاطعها بالتصفيق الحار أكثر من مرة ويطالبها بالإعادة ، حتى إذا ما فرغت منها كانت القاعة ترتج بالتصفيق والتهليل والصفير ، وكان شاب سمين يهتف بأعلى صوته من آخر القاعة :

ـ جامدة ! أغنيتك جامدة يا « مُزَة » !

وانفجرت ضحكة المطربة الفاتنة فى دلال وإطراء ، وانفجر تصفيق الجمهور مرة أخرى ، لتنتقل المطربة إلى أغنية « نوَّرت شموعى » ، وما كادت موسيقى الأغنية البهيجة تنساب حتى كان شباب وفتيات القاعة ، والذين كانوا يزيدون على ثلثى الجمهور يتحولون إلى قطيع هائج مهووس يملأ القاعة رقصًا وتصفيقًا ، وقد زادته اشتعالاً عشرات الفتيات الروشات الفاتنات اللاتى قفزن فوق مقاعدهن منطلقات فى الرقص بمنتهى الجرأة والاستمتاع والاندماج .. حتى الدكتوة (بسمة) وصديقاتها والدكتور (مدحت) والموسيقار (منير الوسيمى) نسيو (يوسف) الجالس بينهم غارقًا فى ذهوله ، وراحوا تمامًا مع الأغنية ، والتى ما إن بلغت نهايتها حتى كانت القاعة يضربها زلزال الهياج تصفيقًا وتهليلاً وصفيرًا ، وكانت المطربة الفاتنة تمد يدها من فوق خشبة المسرح إلى (يوسف) آخذة بيده لتوقفه إلى جوارها ، واضعته أمام جمهوره وهو يعتمد ميلاده شاعرًا وملحنًا ..

★ ★ ★

ـ فى حدود علمى أنت طبيبة ، لا مكتشفة مواهب !

كانت الدكتورة (بسمة) تغلق باب سيارتها فى ساحة انتظار النادى الأهلى بمدينة نصر حين سمعت صوت طليقها الدكتور (عزت حمدون) .. التفتت نحوه ، فإذا به يقف إلى جوار سيارته المرسيدس السوداء بطوله الفارع ، ممسكًا بسيجاره الفاخر ، ومتطلعًا إليها بعينيه الساطعتين بحيوية ابن الأربعين عامًا .. أخذ من سيجاره نفسًا عميقًا متأنيًا ، ثم راح يتقدم منها فى تؤدة حتى وقف أمامها يتأملها بنظرة طويلة عميقة ، أردف بعدها بنبرة مبطنة بالألم :

ـ مبروك اكتشافك يا دكتورة .

ابتسمت فى دهشة :

ـ إذن فأنت تتابعنى !

ابتسم هو أيضًا ، ولكن فى مرارة :

ـ قلتها لك يومًا .. تربطنا ببعضنا روابط لا يحلّها الدهر .. وأمرّها أقواها .

ـ تقصد ثأرك عندى ؟!

هز رأسه نفيًا :

- إطلاقًا .. الثأر لم يخطر ببالى يومًا .. أنا رجل طموح ، أسعى لأن أبنى لى عرشًا عاليًا ، وليس من الذكاء أن أبدد أى جزء من طاقاتى فى السعى للانتقام .

انفلتت رغمًا عنها ابتسامتها المكذَّبة ، واستدارت مجتازة بوابة النادى ، تاركته يسير إلى جوارها .. جلسا إلى أول طاولة صادفتهما ، وعاد هو يتأملها بنظراته الهادرة بالحنين والمرارة حتى وجد نفسه يسألها :

- إلى أى مدى سيصل دورك فى ملحمة (يوسف لملوم) ؟

ابتسَمت هذه المرة فى إعجاب :

- ملحمة ؟!

وراحت تتطلع إلى وجهه مفكّرة للحظة ، ثم اردفت فى اعتزاز :

- تصدق ! فعلاً هى ملحمة !

وكان رده بابتسامة هادئة كلها سخرية :

- طبعًا .. رحلة كهذه من غرفة قذرة فوق سطح بحوارى « عين شمس » إلى خشبة مسرح التليفزيون وأضواء كل وسائل

الإعلام لا يمكن أن تكون إلا ملحمة .

فوجئت (بسمة) بشدة ، بينما مضى هو مستطردًا بهدوئه المثير :

- فوق مكتبى ملف كامل عنه منذ ولادته بعشش « كفر الشيخ » حتى هبّوطه على « أرض الجولف » .

فوجئت أكثر بهذه الرائحة الكريهة المنبعثة من نبرته وكلماته .. اختفت هوادتها ، وانفلت سؤالها فى عصبية مكتومة وتحفز :

- ماذا تريد يا (عزت) ؟

لم يهتز هدوءه :

- ما أريده سألتك عنه .. ما هى آخرتك فى هذا المشوار ؟

- لست فاهمة .

- أهو عمل خيرى ؟

لأول مرة تنطلق ضحكتها بهذه الحيوية .. ضحكت طويلاً من قلبها ، ثم كان جوابها فى شفقة عليه :

- أول مرة يخونك ذكاؤك يا دكتور .

ولأول مرة يهتز هدوءه ، راح يتطلع إليها بمنتهى الدهشة ،

حتى تذكَر سيجاره الذى بين أصابعه ، فأسرع يأخذ منه نفسًا يخفف به من توتره ، بينما أدركت هى ما أصابه ، فمضت تكمل عليه :

- يا عزيزى .. أيةَ امرأة فى العالم لا يمكن أن تفعل ما فعلته أنا مع رجل مثل (يوسف لملوم) إلا إذا كانت تحبه .

ضربته الصدمة .. ضربته بمنتهى العنف ، فتسمرت نظراته على عينيها لوهلة قبل أن ينفلت سؤاله غارقًا فى ذهوله :

- أتحبينه ؟!

- بجنون .

عاد يأخذ نفسًا من السيجار ، ثم عاد يسألها :

- وهو ؟

- حتى الآن لم يعترف لى بها ، ولكننى واثقة فى أننى صرت أجرى فى دمه .

وكانت القاضية له .. ظلت عيناه ساكنتين على عينيها وكأن الصدمة جمدتهما .. كاد يصرخ فيها بأنه هو الذى يحبها بجنون رغم ما فعلته به ، وبأنها تجرى فى دمه هو .. كاد ينفجر فيها

فعلاً لولا أن ذكاءه منعه من أن يفعل هذا بنفسه .. انفلتت منه زفرة مشبَعة بسخونة جبل الجمر المتقد فى أعماق قلبه ، ولم يستطع أن يضع السيجار فى فمه مرة أخرى فأطفأه ، ثم وجد نفسه يقول لها فى خفوت وانكسار وكأنه يحدّث نفسه :

- هذا هو الشىء الوحيد الذى لا أستطيع أن أحتمله .. أن تكونى لرجل غيرى .

وإذا بردها بابتسامة سخرية :

- ماذا تعنى يا تاجر الدم الفاسد ؟ هل تنوى قتله هو أيضًا مثل المئات الذين قتلتهم ببضاعتك المسمومة ؟

وكان رده نظرة غل رهيبة من عينيه إلى عينيها أعقبها بكلمتين اثنتين خافتتين كأنهما همسة شيطان غضوب :

- ليتنى أستطيع .

ونهض منصرفًا بهدوئه العجيب تاركًا عينيها تشيعانه بكل ما فى قلبها من سخط .

* * *

الفصل السابع

تأمل (يوسف) النقود بنظرة طويلة ، ثم ابتسم قائلاً فى تعجب وكأنه يحدث نفسه :

ـ ٥٠ ألف جنيه !

كان يجلس هو والدكتور (مدحت) و (بسمة) فى الصالون وقد استقرت أمامهم فوق المنضدة النقود التى دفعته له الشركة المنتجة لأعمال (أميرة شاهين) عربونًا لألبومها الجديد التى ستطرحه الصيف القادم .. ورغم هدوء نبرته ونظرته المتأملة للنقود إلا أن الدكتور (مدحت) أدرك ما يعتمل بداخله ، فكان جوابه بمنتهى الحنو والحب .

ـ ليست بكثيرة عليك يا فناننا العبقرى .. أنت تستحق كل خير .

التفت إليه (يوسف) يبادله نظرة الحب ، ثم التفت إلى (بسمة) يعانقها بنفس النظرة ، ثم عاد ينظر إلى النقود بنظرته المتأملة ، قائلاً بخفوته الداهش :

ـ السنة الماضية ـ وليس ببعيد ـ جاء علىّ يوم لم أجد فيه ثمن

طعامى ، وقضيت اليوم من الضحى إلى ما بعد منتصف الليل دون أن أضع لقمة فى فمى ، ولم أجد أمامى حلاً غير النوم ، ولكننى لم أستطع من شدة الجوع ، وظللت أتقلب تحت بطانيتى حتى سمعت أذان الفجر ، فنهضت وتوضأت وأسرعت أصلى فى المسجد .. وفى عودتى ، وبينما أصعد إلى غرفتى لمحت كيسًا به بواقى طعام أمام إحدى شقق الجيران ، فأخذته وتعشيت منه ، وصار هذا مصدر طعامى ، بواقى طعام الجيران ، حتى أتيت إلى هنا .

سكين !

سكين مسنون شق قلبى الابنة وأبيها .. كيف تفعل الأيام هذا بإنسان بهذا الإحساس والقيمة ؟! وجدا نفسيهما يتبادلان نظرة الذهول والألم والمرارة ، أطرق الدكتور (مدحت) بعدها بعينيه إلى الأرض بطوفان مرارته ، ولكن (بسمة) بفطنتها ما كانت لتسمح للغم بأن يبدد بهجة المناسبة .. أسرعت تلتفت إلى (يوسف) هاتفة به فى فرحة متعمدة :

ـ أتعلم كم مرة فى اليوم تُذاع أغنية « نورت شموعى » فى الراديو ؟

ثم أردفت مجيبة سؤالها بنفسها :

ـ ست مرات على الأقل .

وكان رد (يوسف) وهو يعانق وجهها بعينيه بمنتهى الامتنان :

ـ الفضل لله أولاً .. ثم لكما يا دكتورة .

ـ أسرعت تقرص يده بأصبعيها معاتبة :

ـ ما دكتورة هذه ؟!

فوجئ بتصرفها ، وأسرع يلتفت إلى الدكتور (مدحت) فى حرج ، فإذا بالرجل يبتسم له قائلاً :

ـ يا داخل بين البصلة وقشرتها .

ذهلت (بسمة) :

ـ بصلة ؟! أنا بصلة يا دكتور ؟!

وإذا بالجواب يأتيها من (يوسف) :

ـ أنت ياسمينة .. أحلى ياسمينة زرعها بستانى .

التفتت إليه رامقته بنظرة أشبه بالقبلة ، أسرعت بعدها تسأله مداعبة :

ـ أهذا الغزل الجميل هو كل نصيبى من هذه المناسبة ؟

وكان رده مبتسمًا :

ـ لا طبعًا .. أنت الليلة نجمتنا أنا والدكتور (مدحت) فى سهرة صبَاحى وفى المكان الذى تختارينه .

انفلتت هتفتها بفرحة طفولية :

ـ CLub 35 .

تطلع إليها متسائلاً ، فإذا بالرد يأتيه من الدكتور (مدحت) :

ـ نايت كلوب فى « الفورسيزون » ، زبائنه « هيفاء وهبى » و « مريام فارس » و « محمد فؤاد » و « روبى » ..

ولم يملك (يوسف) إلا أن يضحك قائلاً :

ـ إذن فليلتنا روبى خالص .

ونهض مردفًا :

ـ سأصلَى العشاء ، وأرتدى الذى على الحبل حتى تستعدا .

واستدار قاصدًا غرفته ، فإذا بـ (بسمة) تسأله وهى تنظر إلى النقود الساكنة فوق المنضدة :

ـ ألن تأخذ هذه الأمانة معك ؟

التفت إليها مندهشًا :

ـ آخذها ؟!

ثم أردف يسألها بدهشته :

ـ ألست سيادتك وزيرة المالية فى هذا البيت ؟

ـ يقولون هذا .

ـ إذن فهذه الأمانة من اختصاصك .

ومضى إلى غرفته تاركها تتبادل نظرة الدهشة مع أبيها .

ساعتان وكان « الفورسيزون » يستقبل مُهرة نارية لا يحتمل وهجها عقل ولا قلب .. إنها (بسمة) فى فستان سواريه وبميك آب أشعلا فتنتها .. انطلقت تأوهات القلوب ، وانطلقت العيون تلتهمها وهى تمض مختالة بفتنتها بين شاعرها وأبيها خلف المترودوتيل إلى طاولتهم التى تم حجزها بالتليفون فى الـ « CLub 35 » .. أجلسهم المترودوتيل ، ودوَّن طلباتهم وانصرف ، فالتفتت (بسمة) إلى (يوسف) تسأله وعيناها تتلألآن بسعادتها :

ـ ما رأى نجمنا الوسيم .

راح يطوف بعينيه فى المكان مبهورًا بجماله الغريب ، ثم عاد يتطلع إليها مشدوهًا قائلاً :

ـ كأنه كوكب ساحر وأنت ملكته .

انفلتت من عينيها الفاتنتين نظرتها التى تشبه القبلة :

ـ بل أنت الساحر يا شاعر .

وإذا برده بدهشته :

ـ لو دخل (عاطف) هذه الجنة لصار سيد الشعراء .

أسرعت تتبادل نظرة الدهشة مع أبيها الذى أسرع يسأله بدهشته :

ـ من (عاطف) هذا ؟!

ـ حمار كنا نمتلكه فى « كفر الشيخ » .

انفجرت (بسمة) ضاحكة :

ـ وكنتم تسمونه (عاطف) ؟!

ـ أنا الذى أسميته ، فقد كان صديقى .

ـ صديقك ؟!

ـ نعم .. صديقى وأجمل متذوق لشعرى .. وكان أبى الله يرحمه إذا أغضبنى انتظرت حتى ينام ، ثم أسرع إلى (عاطف) ملقيًا عليه قصيدة جديدة .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه كان بمجرد أن يسمع القصيدة وتعجبه يطلق تنهيقة مجنونة تفزع أبى من نومه وبهذا أكون قد أخذت بثأرى منه .

ولم تستطع (بسمة) ولا الدكتور (مدحت) التوقف عن الضحك حتى اغرورقت عيونهما بالدموع .

وجاء الجرسون بالعشاء .. صفّه بينهم وانصرف ، فعادت (بسمة) تتأمل (يوسف) قائلة بسعادتها :

ـ كنت أسأل نفسى عن جنون الفنان فيك .

ابتسم يداعبها :

ـ ومن أخبرك بأننى فنان ؟

ـ نهيق (عاطف) .

وانفجر الثلاثة ضاحكين .. وبسعادتهم الغامرة راحوا يتناولون عشاءهم .. وإذا بعينى (بسمة) تتسمران على مدخل الصالة ، فقد فوجئت بـ (عزت حمدون) يدخل .. سيجاره فى فمه وعيناه عليها .. ومن نظرته وابتسامته الماكرة أدركت أنه جاء وهو يعلم بوجودها .. أسرعت تتبادل نظرة الدهشة مع أبيها الذى فوجئ هو أيضًا به ،ولكنه سرعان ما تخلص من فعل

المفاجأة به مرسلاً إلى ابنته نظرة حكيمة بأن تتجاهله، ففعلت، وعادت تواصل تناول طعامها مداعبة (يوسف) بابتسامة متوترة، ولكنها ما كادت تفعل حتى فوجئت بـ (عزت حمدون) واقفًا أمامهم هاتفًا بابتسامة دهشة مصطنعة :

ـ ما هذه المفاجأة الحلوة ؟! مساء الخير يا دكتور (مدحت) .

ولم يملك الدكتور (مدحت) إلا أن يجيبه بابتسامة مجاملة :

ـ أهلاً دكتور (عزت) .. تفضل .

جلس (عزت) إلى جواره بهدوئه المثير ، ثم التفت إلى (بسمة) متأملاً فستانها ومكياجها بنظرة افتتان متأنية ، لم يملك بعدها إلا أن يقول لها :

ـ لو بيدى لاخترتك الليلة ملكة جمال الكون .

انفلتت ضحكة (بسمة) :

ـ الليلة فقط ؟!

وقبل أن يجيبها كانت تردف وهى تغرس شوكتها فى قطعة « سكالوب بانية » :

ـ مجاملة لطيفة منك يا دكتور .

وإذا بها ترفع الشوكة بقطعة « الاسكالوب بانية » نحو شفتى

(يوسف) قائله له بمنتهى الدلال :

ـ ممكن شاعرى يمنحنى هذا الشرف ؟

وفوجئ (يوسف) ، ومع ذلك أسرع يتلقى قطعة اللحم فى فمه .. ثم كانت هتفته وهو يمضغها :

ـ الله .. الله عليك يا فاتنة الشاعر .. قطعة شهد .

وانسابت ابتسامة (عزت) رغمًا عنه ، ووجد نفسه يقول لـ (يوسف) :

ـ نوّرت « الفورسيزون » يا فناننا الكبير .

وكان رد (يوسف) بابتسامة مجاملة :

ـ شكرًا يا دكتور (عزت)

وهنا أسرعت (بسمة) تقول لـ (يوسف) مستدركة :

ـ آه .. عفوًا يا شاعرى .. نسيت أن أقدم لك الدكتور (عزت حمدون) .. طليقى .

وكان رد (يوسف) بابتسامة مهذبة :

ـ تشرفنا يا دكتور .

وكان رد (عزت) بابتسامته المرسومة :

ـ الشرف لى يا فناننا الكبير .

وراح يأخذ نفسًا من سيجاره وهو يتأمل وجه (يوسف) بإمعان ، ثم عاد يقول له :

ـ اغنيتاك رائعتان ..

ـ شكرًا يا دكتور .

ـ المهم الاستمرارية .

وإذا بالرد يأتيه من (بسمة) وهى تعانق (يوسف) بعينيها :

ـ إننا هنا الليلة نحتفل بتعاقده على ألبوم كامل .

التفت (عزت) إلى (يوسف) رافعًا حاجبه إعجابًا وهو يقول :

ـ برافو .. برافو .

وعاد يأخذ نفسًا من سيجاره وهو يتأمله بنظرة عميقة ، ثم أردف قائلاً له بمنتهى التأنى ، وكأنه يتكئ على كلماته كلمة كلمة :

- مؤكد يا فناننا أنك ستبدع فى هذا الألبوم الذى جاء بك إلى « الفورسيزون » .

فوجئت (بسمة) والدكتور (مدحت) بتلميح (عزت) الحقير إلى نشأة (يوسف) الفقيرة ، وهمت (بسمة) بأن ترد ، فإذا بـ (يوسف) يستمهلها بإشارة وقورة من يده ، ثم يجيبه قائلاً فى شموخ مذهل :

- شرف عظيم لى يا دكتور أن يأتى بى إلى « الفورسيزون » نجاح شريف .. وعار شديد أن يطأه بشر أتى بهم نجاح قذر حقير .

بوغت (عزت) ولكنه سرعان ما ابتسم متسائلاً فى سخرية :

- وهل هناك نجاح شريف ونجاح حقير ياحضرة الفنان ؟!

- طبعًا يا دكتور .. الأول خال من إيذاء الناس وظلمهم، بل إنه يسعدهم قبل أن يسعد صاحبه ، وهو فى النهاية يرفع صاحبه، ويفيد المجتمع .

- والثانى ؟

- بلا قلب .. ولا مبادئ .. ولا يمنح صاحبه كرامة مهما ارتفع .. وأنت خير مثال عليه .

قذيفة ..

قذيفة صعقت (عزت حمدون) . وجعلت نظراته تجحظان على وجه (يوسف) بمنتهى الذهول ، بينما أسرعت (بسمة) والدكتور (مدحت) يتبادلان نظرة لا تقل ذهولاً .. ثم عادا ينظران إلى (يوسف) ، فإذا به يردف قائلاً بمنتهى الهدوء :

- الدكتور (عزت حمدون) .. (عزت) باشا .. الطبيب المرموق .. وعضو مجلس الشعب .. ونجم الحزب اختطفنى بلطجيته أمس من أمام برج (أميرة شاهين) ، وذهبوا بى إليه فى فيلا لم أعرف مكانها ، لأننى كنت معصوب العينين .. وهناك حكى لى قصته مع الدكتور (بسمة) ، وكيف أنها وشت به وهى زوجته ، ولذلك طلقها .. وفى النهاية تكرَم بإهدائى نصيحة نبيلة بأن أبتعد عنها ، لأنها لا تصلح لأن تكون زوجة أمينة على زوجها .. وهو هنا الآن ليعرف ردى على نصيحته .

وسقط الطير على رأسى (بسمة) والدكتور (مدحت) ، فتسمرت عيونهما بذهول يكاد يعصف بعقليهما على (عزت) الذى تسمرت عيناه هو أيضًا من الصدمة على (يوسف) بينما راح (يوسف) يغوص فى عينيه بنظرة جبارة شرسة ملؤها تحدٍ ، حتى انسابت ابتسامة (عزت) فائضة بالسخرية ، فما كان من

(يوسف) إلا أنه التفت إلى الدكتور (مدحت) قائلاً له بمنتهى الإجلال :

ـ دكتور (مدحت) .. يشرفنى و يشرفنى و يشرفنى أن أطلب من سيادتك يد الدكتورة (بسمة) .. وأعدك وأعدها فى حالة موافقتكما أن أعيش خادمًا لها طول العمر .. فهل تشرفنى سيادتك بالرد على طلبى الآن ؟

وفوجئ الدكتور (مدحت) ، والتفت إلى ابنته يسألها بعينيه ، فإذا بها تطرق بعينيها إلى المائدة بخجل الموافقة الجميل ، فلم يملك الدكتور (مدحت) إلا أن يبتسم ، ويعود بعينيه مرة أخرى إلى (يوسف) ، وإذا به يجيبه قائلاً :

ـ يا داخل بين البصلة وقشرتها .

ونزلت على خديه شفاه الحبيبين بمنتهى السعادة ، بينما نهض (عزت) منسحبًا بمنتهى الهدوء .. غارقًا فى خزيه ، وفى جهنم من الغل ..

★ ★ ★

الفصل الثامن

النجاح الرائع الذى حصدته (أميرة شاهين) بأغنيتى (يوسف) غمرها شعورًا جارفًا بالتفاؤل به .. أما اقترابها الإنسانى منه فقد أوقفها على شاطئ طالما أضناها الشوق إليه.. إنها ـ قبل أن تكون نجمة وحتى بعد أن صارت ـ بنت مثل كل البنات .. بين ضلوع صدرها قلب عصفورى يهفو إلى جنة الحب، ويدفعها لأن تحلم بالفارس الذى سيحملها إلى هذه الجنة ، ويجعلها تتحرَق شوقًا إلى همسته التى ستذيبها ، وإلى لمسته التى ستصهرها ، وإلى حضنه الذى ستتخذه وطنًا أبديًا لا فراق له .. ورغم أنها الآن تقف على أعتاب الثلاثين من عمرها ، ورغم قسوة مشوارها المضنى الذى قطعته من حوارى « الزاوية الحمراء » إلى مقدمة صفوف نجمات الطرب فى « مصر » والوطن العربى إلا أن قلبها ظل محتفظًا بعذريته انتظارًا للفارس حامل مفتاح جنة الحب .. وصحيح أن طريقها منذ تفتَح أزهار أنوثتها احتشد بعشرات المتصارعين على قلبها ، ولكن تصارعهم هذا لم يكن إلا طمعًا فى جمالها الذى دفع أحد الصحفيين إلى وصفها بأنها صاروخ نووى ،

والذى جعل كل من يقترب منها ويُفاجأ بتلقائيتها وتحررها العفوى يسىء فهمها ، فينقلب ذنبًا لا تجنى من ورائه إلا قطرة جديدة فى كأس مرارتها ، حتى ساقت الأقدار (يوسف) إليها ، فإذا بها أمام شاب محترم بكل ما تعنيه الكلمة ، وإذا باحترامه كله موجه إلى انسانيتها لا إلى جمالها أو نجوميتها .. وإذا به يعاملها بمنتهى النقاء ، وكان أكثر ما أدهشها فيه أنه ليس خجولاً ، ومع ذلك لم يحدث مرة أن جرحها بنظرة أو كلمة ، رغم بلوغ علاقتهما شهرها الخامس، ورغم تردده عليها فى المنزل شبه يومياً طوال هذه الأشهر ، ورغم أنه كثيرًا ما جمعتهما الشقة بمفردهما، ورغم تحررها الطبيعى فى منزلها بأشد كثيرًا مما تكون عليه خارجه ، ومع ذلك ظل محتفظًا بنقائه معها ، وباحترامه الطاغى لحريتها الشخصية.. حدث مرة أن خرجت عليه هو والفرقة حيث كانوا يجلسون فى انتظارها بالريسبشن مرتدية بادى ساخن، فإذا بقائد الفرقة الذى كان يجلس إلى جواره فى كنبة الأنتريه ينتهز فرصة انشغالها بالتحدث فى موبايلها ، ويميل عليه مبتسمًا وهامسًا بتعليق ما على فتنتها فى البادى ، وإذا برد (يوسف) عليه نظرة غضب صارمة جعلته يسرع يوضع عينيه فى الأرض خجلاً ،ولم ينتبه الاثنان إلى أنها شاهدتهما ، وفهمت ما حدث،

فما كان منها بمجرد فراغها من المكالمة إلاّ أنها استأذنت قائد الفرقة بمنتهى الرقة فى أن ينتقل إلى مقعد آخر ، ثم جلست مكانه ملتصقة (بيوسف) وكأنها تحتمى به، وكان رده عليها أن راح يعانقها بنظرة بريئة مطمئنة، وبتبسّم حنون بث الدفء الشهى فى قلبها البكر ، .. ها هى البنَوتة الحلوة البريئة الرقيقة الحالمة بالحب تتنسم أولى نسمات جنته التى طال شوقها إليها، ها هى تظهر على حقيقتها قطة ظمأى كواها الانتظار.. ها هو قلبها يفرد جناحيه متلهفًا على الانطلاق، يدفعها دفعًا إلى اختصار الطريق إلى الجنة الموعودة، وكان عليها أن تطاوعه وتتدبر أمرها .. جاء (يوسف) إلى شقتها كعادته كل ليلة فى الثامنة مساءً ، فإذا بها بمفردها تخبره بأنها منحت الفرقة إجازة اليوم ، وحينما سألها عن السبب كان جوابها وهى تعانق وجهه بنظراتها الظمأى :

ـ لأنى أريد أن أكون لك وحدك الليلة !!

وفوجئ (يوسف) .. ولم يدر بماذا يجيبها ..

توترت نظراته على وجهها فاضحة ارتباكه ، فما كان منها إلا أنها ابتسمت كاشفةً له ما تعنيه :

ـ هل يمكننى أن أدعوك على عشاء رومانسى على حسابك ؟

وتعلقت عيناها بعينيه بنظرة لم يملك أمامها إلا أن يبتسم مجيبها :

ـ أنا تحت أمرك يا نجمتى .

انفجرت سعادتها الطفولية :

ـ قبل أن تشرب قهوتك سأكون جاهزة بين يديك .

وتركته جالسًا فى الريسبشن ، وانطلقت جريًا إلى غرفتها وهى تنادى خادمتها..

أقل من ساعة وكانت تنطلق به فى سيارتها « الفيرارى » ، مطلقة تغريد (حليم) بأغنية « اسبقنى يا قلبى اسبقنى » من كاسيت السيارة .. إنها تذوب عشقًا فى العندليب الأسمر ، ومن فرط عشقها له صار من المستحيل عليها أن تنام كل ليلة قبل أن تسمع صوته .. على جهاز الكمبيوتر بغرفة نومها تحتفظ بكل كلمة نطق بها فى أغنية أو برنامج أو مناسبة عامة أو خاصة .. دندنتها معه المفعمة بفرحتها الطفولية وهى تنطلق بالسيارة جعلت (يوسف) يلتفت إليها متسائلاً فى تبسم :

ـ أتحبين (حليم) ؟

وكان ردها بتبسم حالم :

ـ وهل هناك على أرض العرب كلها من لا يحبه ؟

والتفتت إليه تعانقه بنظرة باسمة ، ثم عادت ترسل بنظراتها أمامها وهى تستطرد قائلة بشرود العذارى الحالم :

ـ على صوته خرطنى خراط البنات فجئت حلوة مثل تغريدة من تغريده ، وعلى صوته دق قلبى أولى دقاته فعرفت الحب ، ومع اكتمالى كأنثى صارت كل ذرة فى إحساسى مختومة بكلمة (حليم) ..

وذهش قلب (يوسف) ، وتحلَّقت نظراته المشدوهة على وجهها ، فاضحة همسته الدهشة التى انسابت فى أعماقه « يا لها من أنثى ! » ، ولم ينتبه من دهشته إلاَّ على قولها فى تبسَّم :

ـ حمدًا لله على السلامة :

انتبه إلى المكان الذى توقفت فيه ، فإذا به نايت كلوب منتصبًا على الكورنيش أمام فندق « كونراد » مباشرة ، ومعلنًا عن مستواه بكوكبة السيارات المكتظة بها ساحته ، والتى لم تر العين مثيلاً لفخامتها حتى فى أفلام السينما .. تحركت دهشته والتفت إلى النجمة الفاتنة متسائلاً بنظراته ، فكان جوابها مبتسمة :

ـ مرحبًا بك فى « سنجريا » .

ومضت به إلى داخل النايت ليكتشف ما هو « سنجريا » من زبائنه المنتشرين فيه .. (نجيب ساويرس) .. (جمال مروان) صاحب « ميلودى » .. (جورج قرداحى) .. (رامى عياش) .. (هيثم شاكر) .. والجميلة (جيهان عبد الله) مذيعة نجوم «FM» .. وغيرهم وغيرهم ممن لم يسبق له رؤيتهم إلا على شاشة التليفزيون وصفحات الصحف والمجلات .. هالات هؤلاء النجوم ، مع سحر المكان الذى يفوق سحر الأساطير ، مع عذوبة الموسيقى الناعمة المتعانقة مع الإضاءة الأكثر نعومة غمروا (يوسف) شعورًا طاغيًا بأنه خرج من كوكب الأرض إلى كوكب آخر لا وجود له إلاّ فى الأساطير .. وكاد شعوره هذا يربكه ويظهره فى هيئة غير كريمة لولا مروءة قرينه الطيب الذى أسرع ينفض عنه دهشته الضاغطة ، وينبّهه إلا أنه لا يقل شأنًا عن هؤلاء النجوم ، بل هو زميل لهم لا يقل عنهم قامة ولا قيمة .. ولم يكذّب (يوسف) خبرًا .. شد قامته ، ورفع رأسه بشموخ متناه وهو يجوس بين الموائد بمطربته الفاتنة كملك يزهو بمليكته .. وحتى وهى تقدمه إلى هؤلاء النجوم الذين راحوا يستقبلونها وقوفًا ويبادلونها السلام بمنتهى الحميمية لم تهتز ثقته بنفسه قيد أنملة ، وهو ما غمر (أميرة) شعورًا خفيًا طاغيًا بالإعجاب به ،

حتى جلسا منفردين إلى إحدى الطاولات بعدما أعلنتها المطربة الفاتنة صريحة لكل من وجه إليهما الدعوة بالجلوس معه بأنها الليلة لشاعرها وملحنها فقط .. وجاءهما كبير مضيفى النايت مرحبًا بهما ، فأمليا عليه قائمة طلباتهما ، حتى إذا ما انصرف بادر (يوسف) المطربة الفاتنة بسؤاله :

ـ أهذا مكانك المفضل ؟!

انسابت ابتسامتها هادئة مغمورة بالبراءة :

ـ قد لا تصدقنى إذا ما أخبرتك بمكانى المفضل .

ـ ماذا يكون ؟

ـ غرفة نومى مع ٢٢ صديقًا وصديقة .

بُهت (يوسف) ، فلم تزدها دهشته إلا تبسّمًا ، ثم أردفت مفسرة :

ـ عروساتى ودباديبى .

هفا قلب (يوسف) لبراءتها ، ووجد نفسه يتأملها بنظرة حانية ، عاد بعدها يسألها :

ـ هل يمكننى أن أسألك سؤالاً شخصياً .

ـ اسأل كما تشاء .

ـ أسرتك ؟

وكأنها كانت متوقعة السؤال ، ابتسمت ، ولكن ابتسامتها لم تكن سوى نزيف مرارة ، ثم كان جوابها بنزيف مرارتها :

ـ متبرئة منى .

قطب جبينه دهشة :

ـ لماذا ؟!

ـ لأنها من قوم بنى لحية .

فهم فزالت دهشته ، بينما أردفت هى :

ـ وطبعًا أنا فى نظرهم عاصية تستحق الرجم ، ولو استطاعوا لفعلوها .

ـ الأسرة كلها ؟!

تندّت عيناها بالدموع ، فأطرقت بهما إلى المائدة كى لا تضايقه بدموعها ، ثم ما لبثت كلماتها أن انسابت حزينة مثل قطرات دموعها :

ـ من يرى لحاهم ونقابهن لا يرى قسوة قلوبهم .

وكان رد (يوسف) على الفور ، وبمنتهى الاستنكار :

ـ لا يا (أميرة) لا .. ليس كل الملتحين ولا كل المنقبات هكذا .. منهم من هم مؤمنون بالله صحيح الإيمان ، وإيمانهم الصحيح هذا يملأ قلوبهم رحمة وحبًا وطيبة ، ويزيّنهم بالتواضع الجميل ، ويجعلهم يسعدون بتقديم المعروف حتى للعاصى على أمل أن يهديه الله يومًا بهذا المعروف .. أما هؤلاء الذين ابتلاك الله فيهم فهم ليسوا من المؤمنين ، والمؤمنون منهم براء ، ويكفيهم فقط قطع أرحامهم هكذا لتحل عليهم لعنة الله وسخطه فى الدنيا والآخرة .

وطغى سخطه واختناقه ، فانقطع سيل كلماته ، ولكنه سرعان ما عاد يستطرد متسائلًا بمنتهى الدهشة :

ـ ألم يسمع هؤلاء أصحاب القلوب الأشد قسوة من الحجارة بقصة الإمام (أحمد بن حنبل) ـ وهو الذى كان معروفاً بتشدده لدرجة أنهم كانوا ولا يزالون يصفون كل متشدد بأنه حنبلى ـ مع شباب نهر « الفرات » ؟! لقد خرج الإمام يوماً بصحبة أحد مريديه إلى شاطئ « الفرات » ، وإذا بهما يشاهدان قاربًا يمضى فى النهر حاملًا جمعًا من الشباب وقد راحوا يلهون بطريقة بعيدة

عن الإسلام .. فماذا كان رد فعل الإمام ؟ لقد رفع وجهه إلى السماء داعياً الله بأن يسعدهم فى الآخرة كما أسعدهم فى الدنيا .. وذُهش صاحبه ، وأسرع يسأله التفسير ، فكان رد الإمام بمنتهى الطيبة بأن المولى عز وجل لن يسعدهم فى الآخرة إلا إذا هداهم وتاب عليهم فى الدنيا ..

★ ★ ★

الفصل التاسع

الدموع التى راحت تتساقط من عينى (بسمة) فوق صورة (يوسف) و (أميرة شاهين) وهما يجلسان فى « سنجريا » ينشق لها قلب الحجر ..

والكلمات الثلاث المفرودة فوق الصورة بعرض الصفحة الأولى للجريدة قذائف مسمومة لا ترحم ..

« عذراء الطرب والحب »

هكذا زغرد الخبر على صفحات صحف الفضائح ، ولم تَكذِّب إحدى صديقات (بسمة) خبرًا ، وجاءتها جريًا بصحيفة منها لتهوى المسكينة فى فراشها محدِّقة فى الصورة والكلمات وقد شقت الصدمة قلبها ، وضرب الذهول عقلها وكيانها كله .. لم تنطق ببنت شفة ، ولكن فى أعماقها صرخت بسؤال واحد لو مس ماء البحر لصبغه بالمرارة ..

كيف يا (يوسف) ؟!

كيف ؟!

فى هذه اللحظات كان (يوسف) ينطلق بسيارته على كورنيش

النيل قاصدًا منزل (أميرة شاهين) فى موعده المعتاد ، وإذا بواحدة من معجباته تطلبه على الموبايل لتسأله عن حقيقة الخبر الذى يملأ الصحف والمجلات ، وقبل أن يفيق من صدمته كان سيل من المكالمات يتدفق عليه مؤكداً الخبر ، فلم يدر بقدمه وهى تضرب دواسة الفرامل بمنتهى العنف ، وبذهول أسود أطفأ الدنيا فى عينيه ، وبمنتهى الفزع انفلتت غمغمته :

- بسمة !

وما كاد يتمها حتى كان يستدير بالسيارة بعصبية أقرب إلى الجنون ، وينطلق عائدًا إلى الحبيبة .. وبأنفاسه اللاهثة ، وبفزعه المصلوب على وجهه وفى عينيه بلغ باب غرفتها ، فإذا بها جالسة فى فراشها تحدق فى الجريدة المطروحة أمامها فوق الفراش بالدموع .. وسقط قلب (يوسف) فى قدميه ، وهم بأن يتقدم منها ، فإذا بها ترفع عينيها الدامعتين إليه قائلة له بمنتهى الهدوء :

- أستاذ (يوسف) .. من فضلك .. أتركنى بمفردى .

وبهت (يوسف) ، وهم بأن ينطق بشىء ، فإذا بها تسبقه قائلة بهدوئها الدامع :

- لا داعى لأن أكرر مطلبى يا أستاذ ، فنحن كبار ولسنا أطفالاً .

وشلت قدما (يوسف) فى مكانه ، وتسمرت عيناه على الحبيبة بنظرة مذبوحة ، لم يملك بعدها إلا أن يستدير مغادرًا الغرفة .. بل الشقة كلها ..

* * *

وكأن قنبلة شيطانية سقطت بغتةً فوق حياة الأربعة .. (بسمة) و (يوسف) و (أميرة) والدكتور (مدحت) ، وانفجرت محطمتها شظايا متفرقة .. انكفأت (بسمة) على ذبحتها غير مستجيبة لأية محاولات لانتشالها منها .. حتى محاولات أبيها الحبيب المستميتة ذهبت كلها أدراج الرياح .. لقد جاء رد فعل الرجل حكيمًا راقيًا.. أسرع يتصل تليفونياً (بيوسف) ليعلم منه أنه موجود بفندق « سونستا » ، فانطلق إليه مستوضحاً الأمر منه ، وما كان من (يوسف) إلا أنه وضع ما حدث كاملاً بين يديه بكل أمانه وحب واحترام ، خاتمًا حديثه الطويل بالخلاصة القاطعة :

- لا (أميرة شاهين) ، ولا كل نساء العالم تستطيع أخذى من (بسمة) ..

ولم يملك الأب إلا أن يأخذه فى حضنه مطالبه بالعودة معه فورًا ، فاذا برد (يوسف) بمنتهى الألم والأدب :

- لا يا دكتور (مدحت) .. لقد غادرت المنزل بأمرها ، ولن

أعود إلا بأمرها .. فأنا ملكها تفعل بى ما تشاء.

واهتز قلب الرجل ..

وانطلق عائداً إلى ابنته ، واضعًا الصورة كاملة أمام عينيها ، فإذا بغشاوة الصدمة مازالت أكبر كثيرًا من محاولاته ..

أما (أميرة) فإنها حينما علمت بما تسببت فيه دون قصد كادت تفقد عقلها ، وأسرعت تتصل بـ (يوسف) فإذا بموبايله مغلقاً ، فلم تجد أمامها غير الدكتور (مدحت) .. انطلقت إليه فى منزله ، فإذا به يجلس محتضنًا وحيدته وقد اعتصرتهما الأزمة عصرًا ، فما كان منها إلا أنها جلست أمامهما موجهة حديثها إلى (بسمة) بألم لا يقل عن ألمها :

نعم .. لقد أحببت (يوسف) ، وليس فى هذا ذنب يديننى به أحد ، ولكننى فى المقابل وقعت فى خطأ لم يكن لى ذنب فيه أيضًا ، وهو أننى اعتقدت أن (يوسف) يبادلنى هذا الحب ، وقد جاء اعتقادى هذا من جهلى بأنكما مرتبطان ببعضكما من ناحية ، ومن رقته معى ومحافظته علىّ من ناحية أخرى ، ومن هنا لم يكن أمامى إلاّ أن أصارحه بحبى ، ففعلت ، فهل تعلمين ماذا كان جوابه ؟

وسكتت هنيهة وقد اغرورقت عيناها بالدموع من قسوة الموقف عليها ، ثم عادت تستطرد قائلة :

- لقد أخبرنى بأن روحه فيك ، وبأنه أبدًا لم ولن يحب غيرك .

واندفعت الدموع من عينى المطربة المكتوية بنار لا تُحتمل ، فأسرعت تطرق بعينيها إلى الأرض ، بينما اهتز شيطان (بسمة) وراحت قبضته اللعينة تنفك عن قلبها ، فإذا بها تلتفت إلى أبيها بنظرة حائرة ، عادت بعدها تنظر إلى (أميرة) متسائلة :

- ولماذا لم يخبرنى ؟

- وهل أُتيح له وقت ؟ لقد كنا فى المساء معًا ، وفى الصباح كانت صحف الفضائح تزفنا .

وطفح سخطها على وجهها وهى تردف قائلة :

- آه لو يعلمون ماذا يفعلون بالناس .

وراحت تمسح دموعها بمنديلها الورقى ، ثم إذا بها تقترب من (بسمة) آخذة برأسها بين كفيها ، وقائلة لها بالدموع وبمنتهى الصدق .

- أنا آسفة .. آسفة جداً .. والله العظيم لو كنت أعلم

أنك تحبينه ما تصرفت هكذا ، فأرجوك سامحينى .. وسامحى حبيبك أيضًا .. سامحينا نحن الاثنين ، فلا أنا قصدت أن أجرحك ، ولا هو أخطأ فى حقك .. بل العكس فقد أثبت فى هذا الموقف أنه نعم الحبيب المخلص .

وإذا بها تضع قبلة اعتذار على جبين (بسمة) ، فلم تملك الأخيرة إلا أن تسرع بضمها فى حضنها قائلة بمنتهى الإجلال والحب :

- العفو يا نجمتنا الجميلة .. العفو .

فما كان من (أميرة) إلا أنها رفعت رأسها من حضنها لتسألها بفرحة :

- يعنى صافية لبن ؟

وكان رد (بسمة) بابتسامتها الحلوة :

- حليب يا قشطة .

- إذن هيا بنا نأتى بالمسكين المنفى فى « سونستا » .

★ ★ ★

الفصل العاشر

أصرت (بسمة) على تأجيل الزواج حتى ينتهى حبيبها من الألبوم .. إنها لا تريد تعطيله يومًا واحدًا .. ومراسم الزواج وشهر العسل سيلتهمون ربع الوقت المتاح له على الأقل ، ثم إنها تريد أن تكون فرحتهم فرحتين ، ومن هنا كان إصرارها القاطع على التأجيل ، ولم يجد (يوسف) مفرًا من الإذعان لرغبتها ، بادئًا عمله على الفور .. ثلاثة عشر شهرًا وهو يطحن نفسه عملاً .. حتى إنه كانت تأتى عليه لحظات يبدو فيها كأنه فى الخمسين من عمره ، رغم تفانى حبيبته وأبيها فى خدمته .. نعم الناس هما .. حنان وحب وتشجيع ورعاية لا ينالهم ابن من أبويه فى زماننا هذا ، وهو ما جعل (يوسف) فور انتهائه من تلحين آخر أغنيات الألبوم يسرع بالسجود لله شكرًا ، ثم يسرع إليهما مقبلاً جبين الدكتور (مدحت) ، وطابعًا أروع قبلة امتنان وعرفان بالجميل على يد حبيبته ، وقف بعدها أمامها قائلاً :

- جائزتى .

وبأحلى نظرة ، وبأحلى ابتسامة ، وبأحلى همسة كان ردها وهى تمنحه يدها :

ـ هيت لك .. يا حبيب قلبى .

★ ★ ★

الصيف !

والأيام الحلوة والليالى الأحلى ..

والبهجة والانطلاق .. وتفتّح ورود الحب ..

وأغنيات (أبو حجاج) تنطلق صدّاحة مغردة من محطات الإذاعة والتليفزيون والكاسيتات والموبايلات .

وكليب (لأميرة شاهين) مغرّدة بأحلى أغنيات الألبوم ، تتنافس الفضائيات على عرضه مرات ومرات يومياً .

واسم (يوسف لملوم) ينوّر صفحات الصحف والمجلات ، ويغرد على ألسنة المذيعات والمذيعين .

و (أبو حجاج) نفسه يطل على مشاهدى التليفزيونَ من برنامجين بصحبة (أميرة شاهين) التى كانت فى غاية النبل فى تقديمه لجمهورها وكأنه هو صاحب الفضل عليها ..

والحبيبة فى كل ذلك تكاد تموت من فرحتها بحبيبها .. سعادتهما جعلت منهما عصفورين فردا أجنحتهما ، وانطلقا يرفرفان .. يطيران .. يغردان .. لا يسع براح الكون سعادتهما .

وفى أقل من عشرين يومًا كانا قد أعادا تأثيث الشقة وفرشها بأثاث وفرش العُرس .. و (أبو حجاج) فى كل هذا لا يكاد يُصدّق ما يحدث .. إنه شىء أبعد من الأحلام ، وأعلى من أى خيال ..

فكيف يصدق أنه يحدث ؟! حتى وهو مع حبيبته فى معمل التحاليل الطبية يجريان فحوصات الزواج الروتينية ما زال غير مُصدّق ..

وحتى وهو يهرع مع حبيبته إلى المعمل فى اليوم التالى لأخذ نتيجة الفحوصات والتحاليل ما زال غير مُصدّق .

دخلا بفرحتهما على الطبيب المختص والذى كانت تعرفه الدكتورة (بسمة) بحكم الزمالة ، مستأذنينه فى أخذ تقريرهما دون أن يجلسا من فرط تعجلهما .. ولكن الطبيب أصر على جلوسهما ..

شىء ما فى وجه الطبيب وفى نبرته استوقفهما .. شىء غير مريح .

جلسا أمامه وهما يتطلعان إليه فى دهشة زادها ما بدا عليه من حيرة وغم ، فانساب سؤال (بسمة) غارقاً فى الدهشة :

ـ ماذا هناك يا دكتور (ماجد) ؟

تطلع إليها الطبيب بنظرة مطفأة ، ثم إذا به يلتفت إلى (يوسف) قائلاً :

ـ أستاذ (يوسف) .. عندك فيروس فى الدم .

ازدادت دهشة (يوسف) وأسرع ينظر إلى (بسمة) فكان سؤالها سريعًا وبمنتهى الانزعاج للطبيب :

ـ أى فيروس يا دكتور ؟

وإذا بالطبيب يطرق بعينيه المخنوقتين إلى المكتب وكأنه عاجز عن الجواب ، ولكنه فى النهاية ما كان يملك إلا أن يجيب :

ـ إيدز !!!!

وكادت صرختا (بسمة) و (يوسف) معًا تصرعان الطبيب مكذبين ، لولا أنه كان أسرع منهما فى تأكيد المصيبة ، موجهًا حديثه إلى (يوسف) :

ـ لقد تأكدنا أنه جاءك عن طريق نقل دم .. فعمره يتزامن مع تاريخ العمليات الجراحية التى أجريتها عقب حادث السيارة الذى تعرضت له منذ سنوات .

هكذا تأكدت المصيبة ..

وهكذا هوت فوق رأسى الحبيبين محطمة عقليهما ، فراحا يحلقان فى بعضهما كالمجانين ، حتى انتبهت (بسمة) إلى صوت مألوف لها قادمًا من التليفزيون المفتوح فى ركن الغرفة..

التفتت إليه فإذا بالدكتور (عزت حمدون) على شاشة التليفزيون واقفًا فى مجلس الشعب يخطب فى أعضائه :

ـ شكرًا .. شكرًا من قلبى للسادة الزملاء والزميلات على ثقتهم فىَ باختيارى رئيسًا للجنة الصحة بالمجلس .. وأدعو الله أن يجعلنى عند حسن ظنكم ، وحسن ظن الشعب المصرى كله ..

ودوّت صرخة (بسمة) وهى تنقض على جهاز التليفزيون محطماه :

ـ لا!!!!!!!!! .

ـ تمت بحمد الله ـ

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى





فوزى عوض

بحر النار !

لن أسألك عما فعل بك هذا ؛ لأنى أريدك أن تنساه ، أن تقطع كل الخيوط التى تربطك به ؛ فالماضى فى حالات كثيرة يكون مخلوقا شريرا بغيضا ، كل همه شد صاحبه إلى الوراء .

113





الثمن فى مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم